

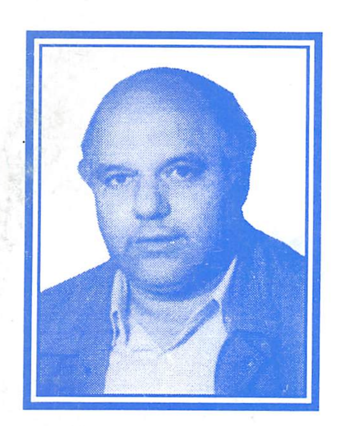
د. إبراهيم عوض

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية

خطاب مفتوح إلى د. محمود على مراد
فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش محمد فريد - القاهرة



د. إبراهيم عوض

- ليسانس آداب جامعة القاهرة ١٩٧٠م
- دكتوراه من جامعة أوكسفورد ١٩٨٢م
- له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منها :

- المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبى - دراسة تحليلية
- المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية)
- المستشرقون والقرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية .
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
- النابغة الجعدى وشعره
- من ذخائر المكتبة العربية
- السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية)
- جمال الدين الأفغانى - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
- فصول من النقد القصصى .
- سورة طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة
- أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية)
- افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية « العار »
- مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

إبطال الشبهات النووية الملقاة على السيرة النبوية

خطاب مفتوح إلى د. محمود علي مراد

في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق



رقم الإيداع
٣١٢٠ / ٩٩
الترقيم الدولى
977 - 314 - 025 - 3



د . إبراهيم عوض

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية

خطاب مفتوح إلى د . محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش محمد فريد - القاهرة



المقدمة

البحث الذى بين يدى القارئ الكريم يدور حول رسالة علمية مكتوبة بالفرنسية قدّمها د. محمود على مراد إلى جامعة السوربون الجديدة (باريس ٣) وحصل بها على درجة الدكتوريّة فى التاريخ الإسلامى فى العام الجامعى ١٩٩٦م - ١٩٩٧م ، وكان موضوعها « سيرة الرسول لابن إسحاق / ابن هشام - الفترة المكية : تحليل نقدى للنصّ ». وقبل القيام بعرض هذه الرسالة يحسن أن نعرّف القارئ بصاحبها ، ولا أظن أن هناك طريقة أفضل من ترك الدكتور مراد نفسه يقوم بهذا العمل ، فقد أرسل لى مشكوراً من چنيف ، حيث يقيم منذ ربع قرن ، خطابا بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٩٨م احتوى على البيانات الخاصة به وعلى سيرة حياته العلمية . وهأنذا أنقل ما كتبه بالنصّ وتحت نفس العنوان الذى عنونه به :

بيانات عن محمود على مراد

مصرى ، مولود عام ١٩٢٦م بالخرطوم .

يقيم بچنيف (سويسرا) منذ ربع قرن .

الشهادات :

ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية .

دبلوم فى القانون العام .

دبلوم فى الاقتصاد السياسى .
ليسانس الآداب (إنجليزى) .
دبلوم دراسات عليا (إنجليزى) من جامعة جرينويل بفرنسا .
دبلوم دراسات عليا فى الدراسات العربية والإسلامية من جامعة ليون بفرنسا .
دكتوراه فى التاريخ الإسلامى من جامعة باريس ٣ (السربون الجديدة) فى موضوع « سيرة الرسول لابن إسحاق / ابن هشام - الفترة المكية : تحليل نقدى للنص » .

الخبرة العامة :

٤ سنوات موظفا كتابيا فى المحاكم المختلطة بالإسكندرية .
٢٢ سنة بالبنك البلچيكى والدولى بمصر ، الذى أصبح اسمه بعد تأميمه « بنك بور سعيد » والذى أُدمِج بعدها فى بنك مصر . وكان آخر منصب تولاه قبل ترك البنك سنة ١٩٧٠م هو مدير الإدارة المركزية ببنك بور سعيد .
سنتين مترجما عربيا بالأمم المتحدة بنيويورك .
١٨ سنة مدرسا ثم أستاذ كرسى متفرغا ومسؤولا عن الوحدة العربية بمعهد الترجمة والترجمة الفورية بجامعة جنيف (١٩٧٣م - ١٩٩١م) . وقد مُنِح عند خروجه على المعاش فى سن الخامسة والستين لقب « أستاذ فخرى بجامعة جنيف » .
عمل بالترجمة التحريرية والفورية كمترجم حرّ فى كثير من

المنظمات وللمؤتمرات الدولية ، وأتاح له ذلك زيارة عديد من البلاد شرقا وغربا .

الأعمال المنشورة :

٧ محاضرات عن أعمال البنوك : معهد الدراسات المصرفية ، القاهرة، ١٩٥٥م ـ ١٩٦٨م .

ترجمة « المأساة الإنسانية » ، وهي مسرحية شعرية بقلم الشاعر الإنجليزى توماس كيد (المعاصر لشيكسبير) مع مقدمة عن المسرحية: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

« شوية جنان » مسرحية من ثلاثة فصول باللغة العامية : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

ترجمة « السيمفونية الرعوية » للكاتب الفرنسى أندريه چيد (بالاشتراك مع أبو بكر محمد بكر) : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

ترجمة سبع مسرحيات للمؤلف الإنجليزى ـ الأيرلندي چورچ برنارد شو الحاصل على جائزة نوبل هى :

١ ـ بيوت الأرامل .

٢ ـ العابث .

٣ ـ السلاح والإنسان .

٤ ـ كانديدا .

٥ ـ رجل المقادير .

٦ ـ تلميذ الشيطان .

٧ ـ هداية القبطان براسباوند .

مع مقدمة عامة عن برنارد شو ومقدمة لكل من المسرحيات السبع . وقد صدرت ترجمة هذه المسرحيات ومقدماتها فى ثلاثة أعداد بتواريخ أول يونية ١٩٧٢م وأول ديسمبر ١٩٧٣م وأول ديسمبر ١٩٧٥م ضمن سلسلة « من المسرح العالمى » عن وزارة الإعلام الكويتية .

برنارد شو والإسلام : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٩م .

ترجمة مجموعة قصص بعنوان « جنازة الأم الكبيرة » عن الإسبانية للكاتب الكولومبى جابرييل جارثيا ماركيز الحاصل على جائزة نوبل، مع مقدمة عامة : الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

ترجمة كتاب « الإسلام المعاصر » عن الفرنسية للدكتور على مراد (الجزائرى) الأستاذ بجامعة السوربون : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م .

ترجمة كتاب « محمد واليهود » للمؤلف الهندى د. بركات أحمد : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م .

ـ ترجمة رواية « الأم » للكاتبة الإيطالية « جراتسيا ديليدا » الحائزة لجائزة نوبل : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٧م .

ترجمة وتقديم مسرحية « موت فوضوى قضاءً وقدراً » ، للمؤلف المسرحى الإيطالى « داريو فو » الحائز لجائزة نوبل : دار الهلال ، ١٩٩٨م .

* * *

وكنت قد سمعت من الأستاذ المستشار رابح لطفى جمعة (ابن د. محمد لطفى جمعة الكاتب المعروف) بالدكتور مراد مراراً ، مقرونا اسمه فى كل مرة بالثناء الجميل على أدبه وعلمه ودماثة طبعه وسموّ خلقه . وكان المستشار جمعة فى كل مرة أيضاً يشير إلى رسالته عن السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق وشرَحها وعلّق عليها وتصرّف فيها بعض التصرف ابن هشام . وقد فهمتُ أن الأستاذ الدكتور قد وصل إلى نتائج تخالف ما قرّ في أذهاننا عن هذه السيرة وعن كاتبها فأحببتُ أن أطّلع عليها . وكنتُ قد أرسلت ، عن طريق الأستاذ رابح ، بعض مؤلفاتى إلى د. مراد ، الذى هاتفنى مرتين فى أسبوعين متتاليين من چنيف ليشكرنى على ذلك . وهو أدب عالٍ من أدب النفس أكد لى ما كنت أسمعه عنه ، ولكن تصادف للأسف أن كنت وزوجتى وابنتنا الصغيرة فى القرية فى كلتا المرتين فكان الذى يرد عليه ابنى وبنتى الكبيرين ، أما أنا فلم أحْظَ بسماع صوته .

ثم أرسلت إليه على عنوانه بسويسرا ، ردًا على مكالمتيه ، خطاباً تحدثت فيه ، ضمن ما تحدثت ، عن رسالته المذكورة ، وطلبت منه ، إذا

كان قد طبعها كتاباً ، أن يرسل لى نسخة منها ، وأخبرته أننى قد أفكّر فى ترجمتها أو كتابة شىء عنها . وقد تفضل الرجل مشكوراً فأرسل لى نسخة من رسالته ما إن وقعتْ فى يدى وقرأت الخطاب الذى أرسله لى والذى وصلنى فى نفس يوم وصول الرسالة حتى بادرتُ إلى قراءتها . وكنت قد صرفت النظر عن ترجمتها لضخامتها ، إذ وجدتها تبلغ نحو أربعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير . وكانت قراءتى فيها ، أول ما وقَعتْ فى يدى ، لمجرد الاستكشاف ، لكننى ما إن قطعت نحو خمسها حتى انعقد عزمى على وضع دراسة عنها لما لقيتُه فيها من آراء غريبة وشديدة الخطورة تنسف السيرة النبوية نسفاً ولا تقدّم بديلاً عنها إلا سيرة أخرى كلها خيال فى خيال . ويا ليت الأسباب التى ساقها الأستاذ الدكتور لتكذيب ابن إسحاق والتشكيك فيما كتبه من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام كانت أسباباً وجيهة (ولا أقول : مقنعة) . لقد بدا لى أن د. مراد قد دخل الموضوع وفى ذهنه أن يحطّم عمل ابن إسحاق ويأتى عليه من القواعد . وإذن فلم يكن الرجل مبالغاً حين وصف عمله هذا بأنه لو نُشِر كاملاً فسوف يكون له وقع القنبلة النووية كما جاء فى خطابه لى . وبالمناسبة فإن عنوان الدراسة التى بين يدى القارئ مُسْتَوْحًى ، كما هو واضح ، من عبارة المؤلف هذه . وسوف أنشر ذلك الخطاب فى ذيل هذه المقدمة حتى يكون القارئ الكريم على بيّنة من أمر الأستاذ الدكتور ودراسته من خلال قلمه هو نفسه أيضا .

وتتلخص آراء د. مراد فى أن ابن إسحاق قد خضع ، وهو يكتب سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، تحت ضغط أهوائه ، فقد ألّفها بأمرٍ من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، ولذلك كان حريصاً أشد الحرص على إرضاء هذا الخليفة بتصوير بنى هاشم وبنى المطلب فى صورة وردية لا تشوبها أية شائبة ، على حين أنه قد عمل على أن تخرج صورة الأمويين (خصوم بنى هاشم) فى الغاية من السوء والرداءة . كما أن ابن إسحاق لم ينس ، وهو يكتب السيرة ، أنه من أبناء المدينة المنورة ، ومن ثمّ فقد نصر أهل المدينة على أهل مكة ، الذين قدّمهم للقارئ فى صورة أبالسة ، على عكس الأوّلين ، الذين جعلهم ملائكة أطهارا مبرأين من كل عيب ، إذ قبلوا الإسلام دون تردُّد ونصروا رسوله من أول وهلة ، بخلاف المكيين ، الذين ظل صلى الله عليه وسلم بين أظْهُرهم يدعوهم إلى دين الله فلا يلقى منهم إلا التكذيب والأذى والتآمر على حياته وتعذيب أتباعه . وهذا كله عند الأستاذ الدكتور خطأ فى خطإ وكذب فى كذب . كذلك لم يغب عن بال ابن إسحاق ، فيما يقول د. مراد ، أن خالد بن الوليد قد سبَى جدّه يسارا أثناء فتح فارس ، ولذلك عمل على تشويه الصورة التى صوّرها لأبيه الوليد بن المغيرة انتقاماً منه ، وكذلك تشويه الخلفاء الثلاثة الأوائل الذين تمّ فتح بلاد فارس فى عهدهم .

وعند د. مراد أنه لا عبد المطلب ولا أبو طالب كانا سيِّدَىْ قومهما ،

وأن جدّ الرسول لم يكن متديّنا بدين إبراهيم فى يوم من الأيام ، وأن مسألة قَسَمه بأن يضحّى بأحد أبنائه إنما هى قصة مختلَقة أُريد بها أن تكون محاكاةً لقصة الرؤيا التى رأى فيها إبراهيمُ عليه السلام أنه يذبح ابنه ، وأن أبا طالب لم يَقُمْ لا هو ولا بنو هاشم بحماية النبى عليه السلام بل كانوا إلْبًا عليه مع الكفار، وأنهم هم المقصودون بـ « أصحاب الأخدود » فى سورة « البروج » ، وكان زعيمهم فى ذلك عم الرسول الآخر (عبد العزّى) ، الذى لُقِّب بـ « أبى لهب » لذلك السبب .

والأستاذ الدكتور يرفض رفضا باتّا قاطعا ما تذكره كتب السيرة عن فترة الاستخفاء التى كانت فى بداية الدعوة والتى كان الرسول عليه السلام يبلّغ فيها سرّا ما ينزل عليه من الوحى ، مقتصرا فى ذلك على من يطمئن إليهم من الأقارب والأصدقاء . ذلك أنه يرى أن الرسول لم يكن بحاجة إلى هذه السرّية لأنه لم يكن يخشى شيئا ولا أحداً ، وكان الله يحميه فى كل خطوة يخطوها ، كما كان الكفّار يرْهَبونه لما يحيط به من جلال الوحى والاتصال بالسماء ، حتى لقد كان يبدو لهم كائناً خارقا، أو كما يسمّى بلغة هذه الأيام « سوبرمان : Surhumain » .

كذلك يؤكد الأستاذ الدكتور أن المسلمين لم يهاجروا إلى الحبشة بل نُفُوا إليها نفيا : نفتْهم قريش ، واشتركت معها فى هذا الجرم الشنيع بنو هاشم وبنو المطّلب بعد الاتفاق مع بعض السلطات المحلية فى بلاد النجاشى على أن يوضعوا بمجرد وصولهم فى معسكرات اعتقال يُسَامُون

فيها صنوف العذاب . أما قصة جعفر ومثوله أمام النجاشى ورجال دينه ومحاجّته لرسولَىْ قريش فى أمور الإسلام والنصرانية فلا أساس لها من الصدق ، بل هى أسلوب من الأساليب التى لجأ إليها ابن إسحاق لتبييض وجه الهاشميين ، الذين ينتمى إليهم العباسيون والذين كان جعفر بن أبى طالب واحدا منهم ، فاخترع له ابن إسحاق هذه الحكاية ليظهره بمظهر البطل الشجاع الذى يتحدى عقيدة أهل البلاد فى بلاط ملكها نفسه ويُدْخِل ذلك الملك فى الإسلام .

ومما يكذّبه الدكتور مراد أيضاً رحلة النبى إلى الطائف ، ففى رأيه أنه لم يكن من الممكن قيام الرسول بها ، لأنه لم يكن ليغامر بتعريض نفسه طوال الطريق من مكة إلى هناك لمؤامرات الكفار ، الذين كانوا يعملون بكل جهدهم على اغتياله والتخلص منه . وبطبيعة الحال فإنه يرفض ما قيل عن اللقاء الذى تم بينه صلى الله عليه وسلم وعدّاس الغلام النصرانى لعُتْبة وشيّبة ابنى ربيعة فى بستانهما بتلك البلدة .

وبالمثل فلا صحة ، عند الأستاذ الدكتور ، لما يسمّى ببيعتى العقبة ، اللتين لا تعدوان أن تكونا اختراعاً من اختراعات ابن إسحاق الكثيرة قُصِد به تمجيد اليثربيين ، الذين يقول د. مراد عنهم إنهم ليسوا هم وحدهم الأنصار ولا كلهم أيضاً ، إذ الأنصار عنده هم كل من نصروا الإسلام ، وهؤلاء كثيرون لا يشكل أهل يثرب إلا جزءا ضئيلا منهم . كما أن يثرب قد شهدت حوادث تعذيب لمسلميها لا تقلّ عدداً ولا

ضراوة عما لقيه مسلمو مكة من إيذاءات وفِتَن . ثم يضيف المؤلف أنه كانت هناك هجرات أخرى إلى مناطق الجزيرة العربية المختلفة انتشرت فيها الدعوة الإسلامية خارج مكة قبل الهجرة للمدينة .

هذه أهم الخطوط العامة لما جاء فى رسالة الأستاذ الدكتور ، وسوف يطّلع القارئ الكريم فى الكتاب الذى بين يديه على المزيد والمزيد مما هو فى النهاية ليس إلا جزءا مما قاله المؤلف فى رسالته ، وعنوانها بالفرنسية " La Biographie du Prophète d'Ibn Ishâq / Ibn Hishâm (Sîra) - Période Mekkoise : Analyse Critique du Texte " وكان المشرف عليها هو د. على مراد الجزائرى الأصل . وينوى الأستاذ الدكتور أن يتابع دراسته للسيرة فى رسالة أخرى سجّلها فى كلية الآداب (بجامعة جنيف) ، التى كان يشتغل بها أستاذا ، وذلك عن الفترة المدنية فى سيرة ابن إسحاق . والحقّ أنى قد أصابتنى ، وأنا أكتب هذه الدراسة الحالية بل قبل أن أمسك بالقلم وأخط فيها حرفا ، حيرة شديدة ، إذ لم أكن أتوقع أن يكون كلام د. مراد عن ابن إسحاق وكتابه عن سيرة الرسول عليه السلام بهذا الظلم القاسى والتحكم الذى لا مسوّغ له على الإطلاق من وجهة نظرى . وعندما أبديت له قبل ذلك رغبتى فى الاطلاع على رسالته وترجمتها أو كتابة شيء عنها لم يدر بخلَدى قط أنى سأقف موقف المخالف بل المخطِئ لكل ما جاء فيها أو لمعظمه على الأقل . كذلك فإن ما سمعته عن تهذيبه ودماثة شخصيته

وما رأيته من تصرفاته الراقية لم يشجّعنى على أن أتخذ هذا الموقف . بيْدَ أنى حسمت الأمر بأن قلت لنفسى : إن الرجل لم يتردد فى أن يقول عن ابن إسحاق و « سيرته » ما قال ، فلم أتحرجُ أنا من أن أقول فى رسالته هو ما أعتقد أنه الحقّ والصواب ؟ بيد أنى لا بد أن أصارح القارئ بأن شيئا غير قليل من التحرج لا يزال عالقا بنفسى رغم فراغى من بحثى . ولكن الرجل قد طلب منى المشورة ، وهأنذا أؤديها بكل أمانة فى هذه الدراسة التى هى فى الحقيقة بمثابة « خطاب مفتوح » له . ورجائى ألا يترك ما كتبتُه أثرا سيئا فى نفسه بعد أن لم آلُ جهدا فى إلجام قلمى وتلطيف حدّته .

والآن أخلى بين القارئ والدراسة التى كتبتُها عن الرسالة المذكورة، ولكن قبل ذلك سوف أُطْلعه ، كما وعدته ، على نصّ الخطاب الذى أرسله الأستاذ المؤلف إلىَّ حتى يكون على بينة من أمره وأمر دراسته من خلال كلامه هو أيضا . وسوف يرى القارئ الكريم ، عند قراءته لهذا الخطاب الجميل المملوء بروح المودة الحلوة والصراحة النقية والتواضع الكبير ، سرّ الحيرة التى لا أزال أشعر بها . ولو كان الأمر أمر مسألة شخصية ما خططتُ حرفا من البحث الذى بين يديه ، ولكنى أخاف إن سكتُّ أن أُسأل عن سكوتى فى أمر خطير كهذا . وليعذرنى القارئ ، وليعذرنى قبله الأستاذ الدكتور ، الذى رددت عليه وأنا متألم ومرتبك أشد الألم والارتباك ، والذى أحسب أنه سيقدّر موقفى . وهذا هو نص خطابه بعد حذف فقرتين منه لما فيهما من خصوصية تتعلق بسيادته :

بسم الله الرحمن الرحيم

چنيف صباح الأربعاء ٢ ديسمبر ١٩٩٨م

السيد الأستاذ الدكتور / إبراهيم عوض

تحية طيبة وبعد ، فأشكرك خالص الشكر على إهدائى مجموعة من كتبك وعلى خطابك الرقيق المؤرخ فى ١٩٩٨/١١/٢٥م الذى وصلنى أمس ، وعلى عرضك الكريم بترجمة رسالتى أو كتابة شىء عنها . وسأرسل نسخة من هذه الرسالة على حدة . وكان عندى مشروع لترجمة الرسالة بنفسى إلى العربية ، وعالجت ذلك بالفعل تحت إلحاح المستشار رابح وترجمت منها ومن ملخصها الذى قدمته إلى هيئة المناقشة صفحات، ولكن ترجمتى لم تعجبنى ، ووجدت أنى عاجز عن المضىّ فيها حتى النهاية ، فصرفت النظر عنها وفضلت أن أحوّل مادتها إلى مقالات أحاول أن أنشرها فى المجلات المصرية ثم أجمعها فيما بعد ، إن أمكن ، فى شكل كتاب . وبدأت بإرسال مقال عنوانه « سيرة ابن هشام : هل أنصفت الحقيقة؟ » إلى مجلة « الهلال » ، التى كانت قد نشرت لى أشياء فى الماضى ، فنشرتْها فى عدد يناير من هذا العام ، أى بعد ثلاثة أشهر من مناقشة الرسالة . وفى عدد مايو من المجلة ذاتها ظهر مقال للدكتور عوضين الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة المنصورة ينقد فيه ما جاء بمقالى ، فأرسلتُ للمجلة مقالا أرد فيه عليه نُشِرَ فى عدد يوليو . ثم أرسلت لـ « الهلال » مقالا آخر بعنوان « الفترة المكية (التى

هى موضوع الرسالة) : هريمة أم نصر ؟ » نشرته المجلة مع حذف ١٥ سطرا من الخاتمة كنت أراها مـهـمـة . وقد أرسلت لـ « الهلال » أخيرا، منذ عشرين يوما ، مقالا عن « انتشار الإسلام خارج مكة » لا أدرى ما إذا كانت ستنشره ومتى .

ونظرا إلى أننى أعلم من تجربة سابقة أن مجلة « الهلال » لا تحب نشر مقالات متتابعة عن موضوع واحد فقد رجعت إلى الدكتور محمد عنانى الأستاذ بجامعة القاهرة الذى كنت قد تعرفت إليه فى چنيڤ (وكان قد ساعدنى فى نشر كتاب « الإسلام المعاصر » وأعاد نشر ترجمتى لمسرحية « المأساة الإسبانية » فى مجلة المسرح) أسأله النصيحة عن المجلة التى يمكن أن تقبل سلسلة من مقالاتى عن الفترة المكية ، وأرسلت له كنموذج مقالا عن عبد المطلب ، وآخر عن أبى لهب ، وآخر عن علىّ وجعفر وحمزة . وقد علمت منه هاتفيا أنه عرض المشروع على الدكتورة فاطمة نصر رئيسة تحرير مجلة « سطور » ، وأنا فى انتظار النتيجة .

وميزة المقالات فى نظرى أنها تقدم الاستنتاجات التى قادنى إليها البحث (وهى استنتاجات تقلب المفاهيم التى استقرت فى موضوع السيرة على مدى ١٢ قرنا رأسا على عقب ، وستكون بالتالى عسيرة الهضم عند نفر كثير من الناس) على جرعات بدلا من أن يكون لها وقع القنبلة النووية إذا قُدِّمَتْ فى رسالة أو كتاب واحد ، وأنى أستطيع

من خلالها أن أتعرف على ردود الفعل من الجهات الدينية ومن القراء العاديين وأن أرد على اعتراضاتهم المحتملة أولا بأول كما رددت على اعتراضات الدكتور عوضين . وعلى أساس ردود الفعل المذكورة أستطيع أيضا أن أقرر ما إذا كان من المستحب أن أمضى فى دراسة سيرة ابن هشام على نفس المنهج أم أعدل عنها أو أعدل منهجى ، فقد سجلت بالفعل فى مارس الماضى رسالة عن الفترة المدنية فى كلية الآداب بجامعة جنيف (التى كنت أستاذا فيها) . وقد اخترت فى هذه الرسالة ، كما سترى ، أن يكون مرجعى الوحيد هو القرآن . وأنا أعرف أن المآخذ الرئيسية الذى سيؤخذ على هو كونى لم أرجع إلى ما جاء بكتب الحديث ، ولكنى تعمدت هذا منذ البداية لأن كتب الحديث قد حررها غويط الأولى ، ثم لأن من اعتمدوا على كتب الحديث ضمن مراجعهم ، أى كل من كتبوا فى السيرة حتى الآن ، قد تلقوا كلام ابن إسحاق كما هو ولم يدركوا ما فيه من مخالفة كبيرة للقرآن : كحكاية فترة الاستخفاء ، وحكاية حماية بنى عبد المطلب للرسول (ص) وحكاية بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) ... إلخ . ونحن نعرف أن الحديث إذا خالف القرآن كانت العبرة بالقرآن . وأنا مع ذلك لست متصلبا ، كما أننى ، كما قلت فى خاتمة بحثى ، لم أكن فى الرسالة أكتب السيرة بل كنت أحلل سيرة ابن هشام تحليلا نقديا ، وأعترف بأن بعض النتائج التى توصلت إليها تحتمل الخطأ .

ويهمنى جدا فى هذا الصدد أن أعرف رأيك فى هذه الرسالة ، فقد تبيّن من كتبك التى تفضلت بإهدائها لى أنك بحّاثة وناقد طويل الباع ممن يمحّصون ويغوصون وراء الحقيقة ، ولا تكتفى بالآراء السطحية . وقد أعجبنى أيضاً فى كتاباتك ، بهذه المناسبة ، ثقافتك العربية الواسعة (الأمر الذى لم يتحْ لى للأسف) ، وغيرتك على الإسلام ، واختيارك الموضوعات الصعبة وارتيادك الطرق الوعرة وفهمك السليم ، بالإضافة إلى قدراتك اللغوية . وفى مجموعة كتبك أكثر من شىء يتصل ببحثى عن السيرة . وقد يخيل إليك من قراءة رسالتى أنى أردد آراء مرجليوث فى الشعر الإسلامى (علما بأنى لم أقرأ لمرجليوث إلا ما ورد عنه فى كتاب هيكل عن « حياة محمد »)، فإنى أعتقد أن أكثر ما ورد فى السيرة من شعرٍ موضوعٌ فى بداية العصر العباسى . ولكن هذا غير صحيح ، فإنى أرى أن شعرا إسلاميا صحيحا قيل فى عهد الرسول (ص) ، ولكن هذا الشعر لم يَرِدْ فى سيرة ابن هشام بل أُخْفِىَ لأغراض سياسية . وكتابك عن « النزعة النصرانية فى قاموس المنجد » كان يمكن أن يُسْعِد غاية السعادة صديقا لى فى چنيف اسمه الدكتور زكى على كان يقول نفس الشىء . ولكنه الآن ومنذ أكثر من عام فى مستشفى المسنين ، وهو غير قادر على القراءة . ومع ذلك سآخذ كتابك معى فى زيارتى القادمة له . وكان بودى أن يكون لى علمك بالشعر الإسلامى والأموى والعباسى لأحكم ، من وجهة النظر الأسلوبية ، على ما ورد بسيرة ابن هشام من شعر بدلا من الاكتفاء بنقده من ناحية الموضوع .

وقد أعجبتني أيضاً قدراتك على الترجمة ، وأكون شاكراً لو وافيتنى بكتابك عن الترجمة الإنجليزية لأقرأه أولا ثم لأعطيه للزميل الذى حل محلى فى رئاسة القسم العربى بمعهد الترجمة والترجمة الفورية بجامعة جنيف . ومن الجائز أن يطلب منه نسخا للطلبة .

هذا ، وقد سجلت منذ نحو ٢٥ سنة موضوع رسالة دكتوراه دولة فى جامعة جرينويل بفرنسا عن « برنارد شو والإسلام » ، وإذا أعطانى الله العمر فسأعد هذه الرسالة بعد إنجاز رسالتى الحالية عن الفترة المدنية . وقد اكتشفت أن برنارد شو ، الذى اتُّهِم ظلما بأنه عدو للإسلام لأنه وصف محمدا بأنه سائق جمال فى مسرحية « القديسة چان » ، عاشق للرسول (ص) وللإسلام ، وذكرتُ ذلك فى كتاب صغير صدر مشوَّها عن دار الهلال .

ختاما تقبل خالص مودتى وشكرى وتقديرى ، ودُمْ للمخلص محمود مراد .

* * *

والآن ، وبعد أن اطَّلع القارئ الكريم على الخطاب الممتع الرقيق الذى تفضّل د. مراد بإرساله إلىّ ووصفنى فيه بما لا أرى أنى أستحقه ، ننتقل إلى مناقشة أفكاره التى تتضمنَّها دراسته المذكورة .

(١)

أولا وقبل كل شيء هل يمكن أن يكون ابن إسحاق بالصورة التي قدمها لنا د. مراد ، ألا وهي صورة الرجل الذى لا يبالى بالحق ولا يتحرى الصدق والموضوعية فيما كتب من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام بل كان يضع نُصْبَ عينيه ممالأة الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، الذى كلّفه بكتابة تاريخ للعالم ثم لما رآه أضخم مما ينبغى عاد فطلب منه أن يختصره لابنه المهدى فكانت السيرة التى بين أيدينا [١]، بالإضافة إلى رغبته فى الانتقام من الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل الذين فُتِحت بلاد فارس فى عهدهم وأُسِر أبوه على يد أحد قُوّادهم ، وكذلك الانتقام من الأمويين ، الذين كانوا يقرّبون العرب ويعاملون الفرس معاملة الكراهية والازدراء ، فضلا عن تحمسه للإعلاء من شأن أهل المدينة ، الذين وُلِد ونما وترعرع بينهم ، على حساب القرشيين سكان مكة ؟ وهل من المستحيل ، كما يقول د. مراد ، أن يفكر أحد

---

(١) ادّعى مثلَ هذه الدعوى من قِبَلُ المستشرق وليم موير ، فقد اتهم ابنَ إسحاق بممالأة العباسيين ، الذين كان يستظل (كما يقول) برعايتهم فعمل من ثمّ على تمجيد أسلافهم وتشويه أسلاف الأمويين أعدائهم ، وذلك بتضخيم وقائع محاربتهم للدعوة فى عهدها الأول (William Muir, The Life of Mohammad, John Grant, Edinburgh, 1912, p. XXXIX) . وممن قال هذا الكلام أيضا من قبلُ الدكتور سهيل زكّار (انظر مقدمته لكتاب «السير والمغازى» لابن إسحاق ، بتحقيقه / دار الفكر / ١٣٩٨هـ - ١٩٧٩م / ١٣ - ١٤) . وها هو ذا الدكتور محمود على مراد يكرّر هذا الادعاء .

من المؤرخين ، خلال عصر تحولٍ وانقلابٍ كالعصر العباسى ، فى كتابة تاريخ موضوعى يفنّد فيه دعاوى النظام الجديد وينْصِف رموز النظام الذى انهار وولّى ؟ إن الجواب بـ « نعم » على هذا السؤال الأخير لا يمكن أن يكون له من معنًى إلا أن معظم التاريخ كَذِبٌ فى كَذِب ما دام مستحيلا على المؤرخين أن يفكروا فى كتابة أى شيء يتعارض وما يقوله النظام القائم ، وإلا أن البشر كلهم تقريبا سواء فى الجبن والنفاق والحرص الدنىء على العيش والمنفعة الشخصية . فهل من العدل أن ننظر إلى الإنسانية فى كل العصور هذه النظرة المتشائمة السوداء ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك أنه لا توجد صلة قوية بين السيرة النبوية والظروف التاريخية والشخصية التى كتب فيها ابن إسحاق سيرته تبيّن لنا جليًا أن دعاوى د. مراد وتأكيداته ليس لها من أساس تنهض عليه كما سنرى بعد قليل .

والحق أن السيرة التى كتبها ابن إسحاق تخلو من تلك المحاباة المزعومة لبنى العباس وأهل المدينة . وكيف يمكن أن يحابى صاحب السيرة العباسيين والأنصارَ وهو لم يكن يوما من شيعة الأولين ولا كان من موالى الأخيرين ؟ لقد اتُّهِم ابن إسحاق بالتشيع ، والتشيّع شىء، وموالاة بنى العباس شىء آخر . لقد أشاع العباسيون أثناء ثورتهم على بنى أمية أنهم إنما يدافعون عن حق على وذريته فى الخلافة ، لكنهم ما إن وصلوا إلى سدّة الحكم حتى انقلبوا على أبناء عمومتهم ونكّلوا بهم تنكيلا بلغ فى بعض الأحيان مدى لم يبلغه فى العصر الأموى ، وقمعوا ثورات الطالبيين عليهم بعنف وحشى وأطاروا رقابا علَوِيّة كثيرة ، فكيف

بعد ذلك كله يقال إن ابن إسحاق كان فى سيرته محابيا للعباسيين ؟

وكذلك كيف يقال إن ابن إسحاق إنما أراد أن يُعْلِىَ من شأن أهل المدينة ويخسف بالمكيين الأرض ، وقد كان مولى لقبيلة قرشية هى قبيلة عبد الله بن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشى ؟ ولذلك قيل عن أبيه يسار إنه مطلبى بالولاء ، وإن كان مدنيا بالمقام [١]. وحتى من ناحية الإقامة نجد أن ابن إسحاق لم يستمر فى المدينة بل سرعان ما تركها ، عقب بلوغه العشرين ، إلى مصر . وإذا كان قد عاد إليها بعد ذلك فقد غادرها مرة ثانية إلى العراق متنقلا بين مدنها المختلفة إلى أن استقر فى بغداد حيث مات سنة ١٥٠ هـ أو بعدها بقليل [٢]. ولو كان مرتبطا بالمدينة هذا الارتباط الذى تريد أن توهمنا به سطور د. مراد ما استطاع على فراقها صبرا . وفوق هذا فإن التنقل بين بلاد العالم الإسلامى كان هو الطابع العام لحياة العلماء والأدباء فى ذلك العصر ، وهذا من شأنه أن يضعف من تعصبهم . ثم إنى لا أدرى كيف فات د. مراد أن عصبية ابن إسحاق المدنيّة المزعومة تتناقض مع ممالأته للعباسيين . أليسوا من القرشيين أهل مكة الذين يقول إن ابن إسحاق فى « سيرته » قد نصر أهل المدينة عليهم ورفع من شأنهم على حسابهم ؟

---

(١) انظر مقدمة طه عبد الرءوف سعد لـ « السيرة النبوية » لابن هشام/ مكتبة الكليات الأزهرية / ١ / ج ، وكذلك ترجمة ألفرد جيُوم لسيرة ابن هشام " The Life of Muhammad ", Oxford University Press, 1980, p. XIIV.

(2) Guillaume, The Life of Muhammad, pp. XIV - XIV; and Mahmoud Aly Mourad, La Biographie du Prophète d' Ibn Ishâq / Ibn Hishâm - Période Mekkoise : Analyse Critique du Texte, 1996 - 1997 , p. 10 .

وإذا كان يسارٌ جدُّه قد وقع فى السَّبْى على أيدى جنود خالد بن الوليد (فى السنة الثانية عشرة للهجرة فى خلافة الصديق) فينبغى ألا يَعْزُب عن بالنا أنه كان آنذاك واحدا من مساجين كسرى فى عين التمر العراقية [(١)]. ومعنى ذلك أن خالدا ، رغم سبيه إياه ، قد حرره بذلك السبى من السجن ، علاوة على أنه ما إن دخل الإسلام حتى أعتقه مواليه وأصبح حرا طليقا مرة أخرى . وابن إسحاق ، على أية حال ، مسلم مخلص لم تَعْلَقْ بإسلامه أية ريبة ، ولم يُعْرَف عنه أنه شعوبى على أى نحو من الأنحاء ، فمن أين تأتيه البغضاء لخالد أو لأحد من الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ؟

ثم إن أحداً من العلماء لم يتهم ابن إسحاق بالكذب أو باختراع حوادث السيرة من عنده ، اللهم إلا مالك بن أنس ، الذى قال فى فورة غضبه إنه « دجّال من الدجاجلة يروى عن اليهود » ، وذلك بسبب تشكيك ابن إسحاق فى نسب مالك وقوله إنه مَوْلًى وليس بعربى كما يقول هو عن نفسه . ومع ذلك فقد عاد مالك إلى مودة ابن إسحاق فودّعه حينما ترك المدينة إلى العراق أكرم وداع ، إذ أعطاه خمسين ديناراً ونصف ثمره من تمر ذلك العام [(٢)] . ومثل هذا الخلاف من الأمور التى تقع فى حياة الناس كثيراً ، وردُّ فعل مالك هو ردّ الغضب الفائر فلا ينبغى الوقوف عنده طويلاً ، وإلا فماذا فى أن ينقل ابن إسحاق عن أولاد اليهود ، وقد أسلموا ، بعض أحداث السيرة ؟ إن ذلك

(1) Guillaume, The Life of Muhammad, p. XIIV .

(٢) سيرة ابن هشام / ى ـ ك (من مقدمة المحقق) .

مما يجب أن يُحْسَب لابن إسحاق لا عليه ، إذ هو دليل حرص على رغبته في جمع أكبر عدد من الشهادات المختلفة على الحادثة الواحدة ، وبخاصة أنه كان يذكر أسماء رُواته بما فيهم هؤلاء المسلمون ذوو الأصول اليهودية مما يعطى القارئ الفرصة للحكم بنفسه على الرواة الذين استمد منهم ابن إسحاق أخبار سيرته . أما إذا كان أحد قد وصفه بالتشيع[1] ، وإن كنت لا أجد في السيرة دليلاً على تشيعه هذا ، فلست أرى ذلك موجبا لنبذ عمله العظيم فى مجال السيرة النبوية ، إذ ليست العبرة باتجاهات الشخص السياسية بل بأمانته وصدقه ، وإلاَّ فيكاد يكون من المستحيل أن نعثر على أحد بين العلماء ليس له انتماء سياسى أو مذهبى . وقد اتضح لنا من خلال تحليلنا لسيرة ابن إسحاق ، فى ضوء اتهامات د. محمود مراد له بممالأة العباسيين وتزييف حوادث السيرة من أجل إرضائهم والتقرب إليهم ، أنه لا يوجد فيها ما يدل على صحة هذا الاتهام . وعلى أية حال فقد أجاب ابن سيِّد الناس على هذه التهمة قائلاً إن « ما رُمِىَ به ابن إسحاق من القَدَر والتشيع لا يوجب ردّ روايته ولا يُوقع فيها كبير وَهْن »[2] .

أما على الناحية الأخرى فعندنا شهادات متعددة من علماء مختلفين بمكانة ابن إسحاق العلمية العالية وأهليته للثقة : فابن شهاب الزُّهْرى يقول : « من أراد المغازى فعليه بابن إسحاق » ، وللشافعى فيه شهادة مشابهة ، كما وصفه عالم آخر بأنه « أمير المؤمنين » فى الحديث ،

(١) المرجع السابق / ى .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

واحتج عدد من كبار علماء الحديث برواياته فى ذلك الميدان ووثّقوه ... وهكذا . وفوق ذلك فعالمنا ، رضى الله عنه ، من بيت علم ، إذ كان أبوه وأخواه من رواة الحديث مثله [١].

والذى يرجع إلى « عيون الأثر » لابن سيّد الناس سوف يجد ما حَظِىَ به ابن إسحاق من توثيق ومدح لخُلُقه وعلمه على ألسنة العلماء من معاصريه وممن جاءوا بعده على السواء ، وكذلك الرد الَقوى على ما وُجِّه إليه من انتقادات[٢] . وقد نقل كل من طه عبد الرءوف سعد ود. فاروق حمادة ومحمد سرور بن نايف زين العابدين من ذلك أشياء : الأول فى مقدمته لـ « سيرة ابن هشام »[٣] ، والثانى فى دراسته عن « مصادر السنة النبوية وتقويمها »[٤]، والثالث فى كتابه «دراسات فى السيرة النبوية »[٥] ، وهو نفسه ما صنعه المستشرق البريطانى ألْفرِدْ جِيَوم فى مقدمة ترجمته لـ « سيرة ابن هشام » . كما ذكر ذلك المستشرق أن ابن إسحاق إنما تعرّض للهجوم من جانب بعض العلماء بسبب كتاب له مفقود بعنوان «السُّنَن » لا بسبب كتابه عن سيرة النبى الذى لا يحوى (كما قال) إلا حديثا أو اثنين من أحاديث النبى عليه

(١) المرجع السابق / ح ـ ط .
(٢) عيون الأثر / تحقيق محمد العيد الخطراوى ومحيى الدين متو / مكتبة التراث بالمدينة المنورة ودار ابن كثير بدمشق وبيروت/ ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م/ ١/ ٦٤ ـ ٦٧ .
(٣) سيرة ابن هشام / ١ / ط ـ ك .
(٤) مصادر السنة النبوية وتقويمها / دار الثقافة / ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م/ ٤٠ ـ ٥٣.
(٥) دراسات فى السيرة النبوية / ط٥ / دار الأرقم / برمنجهام / ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م/ ٨٦ ـ ٩٠ .

السلام يتعارضان مع ما فى كتب الحديث الأخرى . وقد وصفه ذلك المستشرق بالأمانة والصدق والإخلاص فى جمع كل ما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام [١].

هذا عن ابن إسحاق نفسه ، فماذا عن « سيرته » ؟ تُرَى هل فيها ما يعضد كلامنا هذا ؟ أم هل فيها ما يؤكد دعوى د. مراد ؟ إن اعتراض الأستاذ الدكتور فى هذا الصدد يتلخص فى أن ابن إسحاق قد جعل من الهجرة النبوية إلى المدينة منعطفا تاريخيا تحوّل عنده أمر الدعوة الإسلامية من الفشل فى مكة إلى الانتصار والانطلاق والازدهار فى المدينة : فالمكيون قد وقفوا فى سبيل هذه الدعوة موقفًا متصلبا عنيفا فلم يؤمن منهم إلا القليلون ، إذ آذَوْا المسلمين بغية فتنتهم عن دينهم حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، على حين أن أهل المدينة قد تقبلوا الإسلام قبولا سهلاً سمحا منذ بداءة الأمر ولم نسمع بحوادث تعذيب بينهم لأنهم قد دخلوا الإسلام جميعا . أى أن الصورة التى رسمها لهم ابن إسحاق هى صورة وردية بَدَوْا فيها ملائكة فى مواجهة أهل مكة الشياطين . فهل فيما كتبه ابن إسحاق فى « سيرته » ما يصدّق هذا الادعاء ؟

الواقع أن ابن إسحاق قد تكلم مرارا وتكرارا عن الأذى الذى كان القرشيون يصبونه على من يتابع محمداً منهم على دينه . أى أن الذين كانوا يعذَّبون هم من أهل مكة ، ومعنى هذا أن إيمان هؤلاء المكيين قد

(1) Guillaume, The Life of Muhammad, p. XXXIV - XXXVIII.

كان من القوة بحيث ساعدهم على تحمل ألوان الأذى الفظيعة التى كانت تنهال عليهم من كل جانب . وعلى هذا فإذا كان ابن إسحاق قد أبرز قسوة أفئدة فريق من أهل مكة فقد أبرز أيضا عظمة إيمان الفريق الآخر ، هذا الفريق الذى لم يرهبه شتم ولا سخرية ولا ضرب ولا مقاطعة ولا قتل ... إلى آخر صنوف الإيذاء والتعذيب الرهيبة التى كان القرشيون المشركون يتفننون فى إيقاعها بأفراده ، والذى آثر أن يترك وطنه ويضرب فى أرض الله المجهولة عبر البحر أو خلف الصحراء المترامية غير مفكّر فى شىء إلا فى النجاة بدينه كى يفوز برضوان الله . فكيف بالله يصحّ اتهام ابن اسحاق بأنه ضاءل من شأن المكيين ؟ هل كان عليه أن يزيّف الحقيقة ويكذّب القرآن الذى تُجلّجل آياته طَوال العهد المكىّ بتهديد مشركى مكة بالصاخّة والطامّة الكبرى والحاقّة والقارعة والآزفة والواقعة والزلزلة والهاوية والحُطَمة واللّظَى والجحيم وتحذيرهم من أن يَحيق بهم ما حاق بالأمم الكافرة من قبلهم لصدهم عن سبيل الله وإيذائهم الرسول والمسلمين ؟ إن الأستاذ الدكتور يؤكد أن عدد من دخلوا الإسلام فى مكة لم يكن قليلا البتة وأنه لا رجحان لمسلمى المدينة فى هذا الصدد ، ولكنه فاته قول الله عز وجلّ للمسلمين بعد الهجرة يذكرهم بنعمته تعالى عليهم وأنه نقلهم من الضعف والذلّة إلى معارج العز والقوة : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعَفون تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ (١) . وفى هذا أبلغ ردّ وأقواه على الزعم بأن المسلمين هم الذين حَمَوُا الرسول عليه السلام لا بنى هاشم . ذلك أن حال هؤلاء

(١) الأنفال / ٢٦ .

المسلمين ، كما توضحه هذه الآية القرآنية ، لا يساعد أبدا على مثل ذلك الادعاء ، علاوة على أنه ما من كتاب من كتب السيرة والتاريخ الإسلامى ذَكَر ذلك ، وإلا فلم هاجر المسلمون المكيون إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة بعد ذلك إذا كانوا من القوة والمنعة بهذه الدرجة ؟ ومن طريف الأمر أن الأستاذ الدكتور يدّعى فى ذات الوقت أن التعذيب فى مكة كان عاما شاملا وأقسى مما نقرؤه فى سيرة ابن إسحاق ، حتى لقد أنكر أن يكون ذهاب المسلمين إلى الحبشة أو يثرب هجرة ، إذ أكد أن كفار مكة هم الذين نَفَوْا مواطنيهم المسلمين إلى الحبشة بعد الاتفاق مع بعض السلطات المحلية هناك على وضعهم فى معسكرات اعتقال وتعذيبهم ، وأنهم أيضا هم الذين أخرجوهم بعد هذا إلى يثرب إخراجا .

ومن هذا أيضا قوله إن الذى تولّى كِبْر الأخدود المذكور فى سورة « البروج » هو أبو لهب ، وإن من عذّبوا فى هذا الأخدود هم مسلمو مكة على ما سيأتى تفصيله . وهو أمر محير ، إذ لا يعرف الإنسان ماذا يفعل أمام تلك المتناقضات التى يَدْهَنا بها الأستاذ الدكتور ! وبالمناسبة فقد تكررت إشارة الأستاذ الدكتور فى هذا السياق إلى الآيات الكريمة التى تتحدث عن أن الله هو الحامى الوحيد لرسوله ودينه وأن النصر لا يأتى إلا من عنده سبحانه . ويتخذ سيادته من ذلك برهانا على أن بنى هاشم والأنصار ليسوا هم الذين دافعوا عن النبى عدوان قومه بل الله . ولا أدرى كيف سبق إلى ظنه أن مثل هذه الآيات الكريمة تؤدى إلى تلك النتيجة التى توصل إليها سيادته . إننا لا نشاحّ مثلا فى أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[1] ، لكن هل معنى هذا أن الرزق إنما يهبط علينا

---

(١) كما جاء فى الآية ٥٨ من سورة « الذاريات » .

من « السماء » ، وبخاصة أن هناك آية أخرى تقصر وجود الرزق فيها ؟[1] وهل معنى قول الله جل شأنه لرسوله عقب انتصار بدر الساحق على المشركين : ﴿ فلَمْ تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميْتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى ﴾[2] أن نكذّب وقائع التاريخ التى تفقأ العين ونذهب فنردد أن المسلمين لم يفعلوا شيئا فى تلك الغزوة سوى أنهم وقفوا ينظرون ويتفرجون على رمى الله للمشركين وقتله إياهم ، فلم يرموهم بالسهام ولا قتلوهم بالسيوف ؟ إذن فما معنى الجهاد فى سبيل الله يا ترى ؟ وما مغزى وعد الله المجاهدين بالجنة وطيباتها ؟

إن فهم الآيات على هذا الأسلوب الحرفى يُلْغِى التوسل بالأسباب ، وهو ما تستحيل الحياة معه ، وإلا فما الحكمة من تنظيم الكون على أساس قوانينَ مُحْكَمةٍ إذا كانت هذه القوانين لا تقدم ولا تؤخر وكان الرزق والنصر والشفاء والشبع والرِّىّ ... إلخ تأتينا من الله مباشرة دون مرور بوسائط البشر والأشياء وسنن الكون ؟ وعلى أية حال فها هو ذا القرآن نفسه يقول إن على المؤمنين أن ينصروا الله أوّلاً حتى ينصرهم هو : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[3] ، كما بين الله سبحانه أن نصر الله للمسلمين على

---

(١) وهى الآية التى تقول: ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات / ٣٢) .

(٢) الأنفال / ١٧ .

(٣) محمد / ٧ .

الكافرين لا يتحقق إلا من خلال المسلمين أنفسهم : ﴿ قاتلوهم يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصركم عليهم ﴾[(١)] أو من خلال قوة من قوى الطبيعة أو الملائكة : ﴿ فأرسلنا عليهم (أى على الأحزاب) ريحا وجنودا لم تَرَوْها ﴾[(٢)]، ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فوركم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾[(٣)]... وهكذا . لقد نص القرآن نصا صريحا على أن أهل المدنية قد آووا الرسول والمهاجرين ونصروا الإسلام : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ... * ... * والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا . لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [(٤)] .

وهل ينكر أحد أن الإسلام قد وجد منفسحاً واسعاً فى المدينة لم يجده فى مكة ؟ إذن فلماذا هاجر الرسول والمسلمون من هذه إلى تلك إن كان الأمر كما يريد منا الدكتور مراد أن نعتقد ؟ لقد كان الإسلام ،

---

(١) التوبة / ١٤. وها هى ذى كارين أرمسترونغ تتحدث عن استعاذة النبى بنور وجه ربه حين طارده سفهاء الطائف ورموه بالحجارة فتقول إن « الاستعاذة بالله لم يكن معناها أن محمدا كان قادرا على الاستغناء عن حماية البشر ، فالقرآن يقول بوضوح وجلاء إن على المسلمين أن يبذلوا كل جهد بشرى ممكن لرعاية أنفسهم ... : ﴿ إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ » (كارين أرمسترونغ / سيرة النبى محمد / ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى / ط٢ / سطور / ١٩٩٨م / ٢٠٧) .

(٢) الأحزاب / ٩ .

(٣) آل عمران / ١٢٤ .

(٤) الأنفال / ٧٢ _ ٧٤ .

بشهادة القرآن ، مضيّقا عليه فى مكة ، وكان المسلمون ضعفاء قليلين يخافون أن يتخطفهم الناس ، ولم يكن قد نزل الوحى بالإذن لهم بردّ عدوان المشركين عليهم بمثله ، إذ لم تكن الظروف مواتية لنزول مثل ذلك الإذن الذى يحتاج إلى قوة ومنعة لم تكونا متوفرتين لهم فى مكة وهم أقلية متناثرة بين قبائلها ليس لها من الأمر من شىء ، لكنهم بعد أن آواهم الله إلى المدينة تغيرت الحال فأصبحت لهم دولة وحكومة ، وأضحى لهم جيش وسلاح ، وأُذِن لهم أن يردوا العدوان عليهم بمثله وينتصروا بعد ظلمهم ، وتسارعت خطا انتشار الإسلام فَفُتِحَتْ مكة ، التى أخرجته من أرضها ، وخضعت بلاد العرب كلها للإسلام ، ووفدت القبائل إلى المدينة تبايع الرسول ﷺ ، وأرسل عليه السلام إلى ملوك الأرض من حوله يدعوهم إلى الدخول فى دينه ... إلخ . فإذا كان هذا كله قد حدث فى المدينة فلماذا نضيق صدرا بالمدنيين ونحاول التقليل من شأنهم ومن إيمانهم ونصرهم للإسلام ؟ إن الثناء عليهم وتقدير حبهم لله ورسوله وإبراز العون النبيل الذى قدموه لإخوانهم المهاجرين والتضحيات التى بذلوها من أجل رفعة دينهم ليس معناه أبدا التصغير مما بذله مسلمو مكة من عون وتضحيات . من قال هذا ؟ وكيف يصح أن نفهم هذا من كلام ابن إسحاق ؟

على أن ابن إسحاق مع ذلك لم يصوّر المدينة وأهلها جميعا بصورة وردية دائما كما يقول الأستاذ الدكتور ، فها هو ذا ينقل وصف المدينة

على لسان عائشة رضى الله عنها بأنها لما قدمها الرسول كانت أوبأ بلاد الله من الحمّى فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى لقد دعا رسول الله ربه أن يحبّب إلى المهاجرين المدينة كما حبّب إليهم مكة(١) . أى أن الله قد صرف بلاء المدينة ببركة الرسول عليه السلام ودعائه ، وهو ما يعنى أن الرسول هو صاحب الفضل عليها لا العكس . كما أفاض ابن إسحاق فى الحديث عن ألاعيب اليهود وسفالتهم وغدرهم ومؤامراتهم على الرسول والإسلام وخيانتهم العظمى فى غزوة الخندق ، وقد كان اليهود (كما نعرف) يشكلون جزءا ضخما من سكان المدينة . وبنفس الطريقة خصّص صفحات طوالاً لأصدقائهم المنافقين استفاض فيها فى الحديث عن خبثهم وجبنهم وكفرهم المبْطَن والخطر الذى كانوا يمثلونه بالنسبة للإسلام والمسلمين ومحاولات الاغتيال التى استهدفوا بها حياة الرسول الكريم . ولم يكن عدد هؤلاء المنافقين بالنسبة لسكان المدينة قليلا ، وإلا ما كثُرَ الكلام عنهم فى القرآن وعن خطرهم . وقد كانت نسبة من انفصلوا مع ابن أُبَىّ رأسِ النفاق من جيش المسلمين الخارج لملاقاة المشركين فى غزوة أحد ورجعوا إلى المدينة دون اشتراك فى الحرب نسبة كبيرة . وإنّ حُكْم القرآن عليهم لهو أشد من حكمه على المشركين ، إذ يضعهم فى « الدرك الأسفل من النار » كما جاء فى الآية ٤٥ من

---

(١) سيرة ابن هشام / ٢ / ١٦٩ ـ ١٧٠ .

سورة « النساء » . فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن ابن إسحاق يحابى أهل المدينة بإطلاق على أهل مكة بإطلاق ؟

كذلك فإن الذين أَبْلَوْا البلاء الأعظم فى بدر مثلا ، على حسب ما جاء عند ابن إسحاق ، هم من المهاجرين . وبالمثل فإن معظم من كان يقيمهم الرسول على المدينة عند خروجه للغزو كانوا من المهاجرين . كما كان الذين هدموا الأوثان بعد فتح مكة كلهم من المكيّين ، وهم خالد وأبو سفيان والمغيرة بن شعبة . والذى حج بالناس فى السنة التاسعة للهجرة واحد من أهل مكة هو أبو بكر ، والذى بلّغ سورة « براءة » للناس فى تلك المناسبة هو أيضا واحد منهم ، وهو علىٌّ كرم الله وجهه . ولا ننس أيضا حديث ابن إسحاق عن أبى عامرٍ الراهب (اليثربى) وحقده وخيانته رغم أن ابنه حنظلة كان من أبطال المسلمين المخلصين ومات فى غزوة أحد ، التى برز فيها على أشدّه غدر أبيه . وكذلك ينبغى ألا يفوتنا ما قاله ابن إسحاق عن حسان بن ثابت الأنصارى شاعر الرسول من أنه كان أثناء غزوة الخندق محتميا بالحصن مع النساء والصبيان وأنه خاف أن ينزل لملاقاة الجاسوس اليهودى الذى كان يطيف بالمكان فنزلت عمة الرسول فقتلته بعمود من حديد[1] ، علاوة على دوره هو وبعض الخزرج فى حديث الإفك[2] . وقد سجل ابن إسحاق أيضا ردّ الرسول عليه السلام على أحد الأنصار عندما قال

(١) المرجع السابق / ٣ / ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) السابق / ٣ / ١٩٠ ، ١٩٢ .

مستهينا بقتلى المشركين فى بدر : « والله إنْ لَقِينا إلا عجائز صُلْعًا كالبُدْن المعقَّلة فنحرناها » ، فقد تبسم رسول الله ﷺ وأجابه بقوله : « أى ابن أخى ، أولئك الملأ ! » [١] . كما سجل ردَّ فعل الرسول صلوات الله وسلامه عليه تجاه ما بلَغه عن سعد بن عبادة الأنصارى من قوله ، وقد أعطاه راية الفتح لدخول مكة من كداء : « اليوم يوم الملحمة ! اليوم تُستَحلّ الحرمة ! » ، فقد أمر ﷺ عليًا أن يسرع فيأخذ الراية منه ويكون هو الذى يدخل بها [٢] .

ويتهم د. مراد ابن إسحاق بأنه قد عمل بالباطل على الغض من شأن الأمويين وإبراز محاسن الهاشميين ، إذ جعل بنى هاشم وبنى المطلب هم الذين حَمَوُا النبى عليه السلام فى مكة من بطش قومه ، بما يفيد أن الدعوة لم تكن لتقوم لها قائمة لولا هم . فهل هذا الاتهام صحيح ؟ لنجعل سبيلنا إلى الجواب عن هذا السؤال هو النظر فى « السيرة » نفسها لنرى مدى صدق هذه التهمة أو عدم صدقها . إننا ننظر فنرى أن سيد بنى هاشم [٣] ، رغم ما يرويه ابن إسحاق عن حمايته للنبى ووقوفه حائلا بين قريش وإيذائها إياه ، قد ظل طول عمره كافرا فلم يدخل الإسلام قط ، بل لم ينطق بالشهادة مجرد نطق حتى وهو فى رمقه

---

(١) السابق / ٣ / ١٤٣ .

(٢) السابق / ٤ / ٢٦ .

(٣) وهو أبو طالب على ما يقول ابن إسحاق ، الذى يشكّك فى كلامه ، فيما يخصّ هذه النقطة أيضاً ، الأستاذ الدكتور .

الأخير . يقول ابن إسحاق إن الرسول ، فى آخر اجتماع له بزعماء قريش عند أبى طالب ، كرر عليهم كالعادة دعوة التوحيد ونبذ الأوثان ، وإن أبا طالب ، بعد انصرافهم ، قال له: « والله ، يا ابن أخى ، ما رأيتك سألتهم شططا »، وإن رسول الله قد طمع حينئذ فى إسلام عمه فأخذ يحضه على التلفظ بالشهادة حتى يستطيع أن يتشفع له يوم القيامة ، لكن أبا طالب اعتذر مخافة المعرّة على نفسه وعلى أبنائه من بعده أن يقال إنه إنما تلفظ بها جزعا من الموت . وفى مشهد الاحتضار يحرك أبو طالب شفتيه ويصغى إليه العباس بأذنيه ثم يقول لابن أخيه : « والله لقد قال أخى الكلمة التى أَمَرْتَه أن يقولها »، لكن إجابة رسول الله ﷺ سرعان ما تأتيه باترة ، إذ قال فى حسم : « لم أسمع »[1]. تُرَى ما الذى كان يتحرج منه ابن إسحاق ما دام لا يبالى بحق أو باطل وما دام همه ، كما يقول د. مراد ، هو إرضاء السلطة العباسية ، فمنعه من إدخال أبى طالب ، عميد بنى هاشم ، فى الإسلام ؟ أليس المقصود هو الإعلاء من شأنهم على حساب بنى أمية ؟ فكيف فاته أن يسجل لهم هذه النقطة الساحقة ؟ ثم نأتى إلى العباس ، الذى خَلَفَ أبا طالب فى حماية النبى فيما هو واضح من بعض أحداث السيرة ، فنجد ابن إسحاق لا يذكر أنه دخل فى الإسلام إلا عام الفتح ، أى فى أواخر الدعوة الإسلامية حينما أسلمت قريش كلها تقريبا ومعهم أبو سفيان

---

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام / ٢ / ٤٧ .

زعيم الأمويين ، فما وجه الفضل له هنا ؟ [١] بل إن العباس ، على ما يذكر ابن إسحاق ، قد استمات فى الدفاع عن أبى سفيان فى مواجهة عمر ، الذى أراد أن يقتله عشيّة الفتح حينما ظفر به وهو مع العباس قبل أن يسلم ، قائلا له : « مهلا يا عمر ، فوالله أن لو كان من بنى عَدِىّ بن كعب[٢] ما قُلْتَ هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف »[٣] . ومعنى هذا أن العباس يعدّ أبا سفيان واحداً من أهله نظرا إلى الجدّ البعيد الذى ينتسب كلاهما إليه ، فأين العصبية هنا لهاشم على أمية ، وها هو ذا ابن إسحاق يجعل العباس[٤] وأبا سفيان شيئا واحدا ؟

(١) وحتى لو أخذنا بالرواية التى أوردها ابن إسحاق عن أبى رافع مولى النبى عليه السلام عند حديثه عن غزوة بدر من أن العباس كان مسلماً حينذاك ، فينبغى أن نتنبه إلى بقية الرواية التى تقول إنه كان ذا مال كثير متفرق فى قومه ، فكان يهابهم ويكره خلافهم (سيرة ابن هشام / ٢ / ٢١٠) ، إذ إن مغزى الكلام واضح ، وهو أن العباس قدّم الحسابات المالية على إعلان دخوله فى الإسلام . وليس هذا مما يقال فيه إن ابن إسحاق إنما كان يمالئ به بني هاشم علي حساب بنى أمية . وفى سيرة ابن إسحاق أيضاً أن العباس قد اشترك مع قريش فى حربها ضد المسلمين ببدر (ابن هشام / ٢ / ١٩٧) .

(٢) قبيلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٣) سيرة ابن هشام / ٤ / ٣٢ _ ٣٣ .

(٤) أقول : « يجعل » من باب الجدل فقط ، وذلك مجاراةً للدكتور مراد ، الذى يرمى ابن إسحاق بأنه عبث بالسيرة بل وبالقرآن تحقيقا لأغراض شخصية ورميا إلى أهداف سياسية .

وأيا ما يكن الأمر فلم يذكر ابن إسحاق من بين مسلمى العصر المكّى أحدا من بنى هاشم إلا عليّا وجعفرا (ابنى أبى طالب) وإلاّ حمزة عمهما [١] ، أما من أسلم بعد ذلك منهم فإنما كان إسلامه بأُخَرَة . على أن أبا طالب لم يكن هو وحده الذى مات منهم على دين قومه بل شَرِكَهُ فى ذلك أخوه أبو لهب ، الذى لم تكتف السيرة بالقول بأنه مات مشركا بل ذكرت أيضا أنه كان من الذين تولّوْا من زعماء قريش كِبْر مناوأة الرسول والصدّ عن دعوته وإيذائه الأذى الشديد حتى لقد نزلت فيه وفى زوجته سورة قرآنية كاملة تلعنهما وتتوعدهما بالنار وأهوالها[٢] ، وهو ما لم يحدث مع أى من زعماء الكفر لا فى مكة ولا فى المدينة . وقد كان باستطاعة ابن إسحاق أن يتجاهل كل هذا لو كان قد وضع نُصْب عينيه رفع مكانة بنى هاشم تزلفا لخلفاء بنى العباس . ودَعْنا من أنه ، ما دام قد وصل فى كذبه وتدجيله إلى هذا الحدّ ، قد كان يمكنه أن يدعى أن أبا لهب المذكور فى القرآن ليس هو عم الرسول

---

(١) وحتى إسلام حمزة نجد سيرة ابن إسحاق تعزوه إلى العصبية الأسرية بالدرجة الأولى، إذ تقول إن حمزة كان عائدا من الصيد ذات مرة فلقى امرأة فى بعض الطريق أخبرته بما كان من اعتداء أبى جهل على ابن أخيه صلى الله عليه وسلم ، فما كان منه إلا أن قصد الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع نفر من قريش وضربه بقوسه فى رأسه فشجها صائحا أنه منذ اليوم على دين ابن أخيه ، ولْيَفْعَلْ أبو جهل شيئا إذا استطاع (سيرة ابن هشام / ١ / ٢٦٠ ـ ٢٦١) .

(٢) سيرة ابن هشام / ٢ / ٣ ، ٥ ـ ٦ .

بل شخصا آخر ! وعلى المتضرر أن يلجأ إلى أضابير قريش التى كانت تحفظ فيها أنسابها ، وأين مثل تلك الأضابير ؟

وانظر كذلك العبارة التى عقّب بها ابن إسحاق على تطليق عتبة ابن أبى لهب رُقَيّةَ بنت رسول الله حينما أرادت قريش إيلام النبى وإحراجه وشَغْلَه ببناته كما قالوا فطلبوا من عتبة أن يطلق رقية فطلقها بعد أن زوجوه بفتاة قرشية سمّاها لهم . قال ابن إسحاق : « ولم يكن أُدْخِل بها (أى برقية رضى الله عنها) ، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له وخلّف عليها عثمان بن عفان بعده »[1]، وهى عبارة كان بمستطاعه ، لو كان يتعصب لبنى هاشم ، أن يسكت عنها لما فيها من الإهانة والتحقير لاثنين منهم : أبى لهب وابنه .

ليس ذلك فحسب ، بل إن ابن إسحاق لم يذكر ممن هاجر إلى الحبشة من رجال من بنى هاشم إلا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ، على حين عدّ من بنى أمية عثمان بن عفان وعَمْراً وخالدا ابنَىْ سعيد بن العاص[2] . أى أنه فى مقابل واحد من بنى هاشم قد هاجر ثلاثة من بنى أمية إلى الحبشة . فما الذى اضطر ابن إسحاق لهذا لو كان يريد نصرة بنى هاشم على بنى أمية بالزيف والبهتان ؟ ويضاف

(١) المرجع السابق / ٢ / ٢١٤ .

(٢) السابق / ١ / ٢٨٠ ـ ٢٨١ . وهناك رابع من بنى عبد شمس (أبى أمية ، الذى ينتسب إليه الأمويون) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

إلى ذلك أن ابن إسحاق قد ذكر أيضا ، ضمن من كانوا يسرفون في إيذاء الرسول بمكة ، ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، الذى اشترك أيضا في حرب الرسول والإسلام ببدر ، ولم يُسْلِم إلا عند فتح مكة ، ولم يَعْفُ عنه الرسول عليه السلام وقتئذ إلا بعد لأْى ، إذ تشفعت له أم سلمة رضى الله عنها حين جاء يلتمس الدخول على رسول الله فلم يأذن له ولم يقبل فى البداية شفاعتها فيه ، ثم عاد فأذن له فى الدخول عليه بعد أن بلغه أنه ، إن لم يَعْفُ عنه ، سوف يأخذ ابنه الصغير ويذهبان فى الأرض حتى يهلكا من الجوع والعطش . وعندئذ أعلن إسلامه ، ومع ذلك لم يكن دخوله فى الإسلام سمحاً ، إذ ادَّعى فى شعرٍ له أنه طرَّد رسول الله من مكة كل مطرَّد ، فما كان من الرسول (حسبما تقول الرواية التى أوردها ابن إسحاق) إلا أن ضرب فى صدره مستنكرا وهو يقول : « أنت طرّدتنى كلّ مطرَّد ؟ »[1].

وبالمثل لم يتحرج ابن إسحاق أن يذكر أن الرسول عليه السلام لم يصطحب أحـداً فى هجـرته من مكة إلى المدينة من بنى هاشم بل اصطحب أبا بكر (وأبا بكر وحده)، ولم يستَعِنْ بأحد فى تدبيرها إلا به وبأهله رضى الله عنهم . وأيضا لا نجد ، عند ابن إسحاق ، اسما من أسماء بنى هاشم ضمن من كلفهم رسول الله بعد فتح مكة بهدم

(١) انظر فى أبى سفيان بن الحارث « سيرة ابن هشام » / ٢ / ٢١٠ ، و ٣ / ١٧٠ ، و ٤ / ٣١ - ٣٢ .

الأصنام ، على حين يبرز اسم أبى سفيان زعيم الأمويين فى هدم اثنين منها [١] . وكذلك لا يذكر ابن إسحاق أن الرسول قد ولّى أحدا من بنى هاشم على المدينة عند خروجه مع المسلمين للغزو فى سبيل الله [٢] أو بعث أحدا منهم برسالة إلى ملوك الأرض الذين أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، كما أن قواد الأغلبية الساحقة من الغزوات والسرايا ، حسبما وردوا عنده ، كانوا من غير بنى هاشم . وفى صلح الحديبية لم نسمع بأحد منهم إلا عليًا ، وأخيرا فرغم غنى العباس بن عبد المطلب (جد الخلفاء الذين يتهم د. مراد ابن إسحاق بممالأتهم من خلال تمجيد أسلافهم على عهد النبى) فإننا لا نقرأ فى سيرة ابن إسحاق أنه أنفق من ماله فى سبيل الله كما أنفق عثمان بن عفان[٣] ، الذى يقول كاتبنا إن صاحب السيرة قد عمل جاهداً على التقليل من شأنه وإبقائه فى الظل بسبب أمويته ! ثم إنه لم يحاول أن يتجاهل ما ناله رضى الله عنه من شرف رفيع أضافه إلى كرم محتده بزواجه من اثنتين من بنات الرسول الأكرم . بل لقد عدّه رضى الله عنه بين من حضروا بدرا من

---

(١) المرجع السابق / ٤ / ١٣٨ .

(٢) حتى عندما خلّف صلى الله عليه وسلم عليًا فى أهله فى غزوة تبوك لم يستعمله، كرم الله وجهه ، على المدينة بل استعمل محمد بن مسلمة الأنصارى (ابن هشام / ٤ / ١٣٠ _ ١٣١) .

(٣) انظر إنفاق عثمان رضى الله عنه فى غزوة تبوك مثلا _ وقد أثبت ابن إسحاق الدعاء الكريم الذى دعا به رسول الله له (ابن هشام / ٤ / ١١٩) .

المسلمين رغم تخلفه عنها بإذن الرسول لتمريض رقية زوجته رضى الله عنها فى مرضها الذى ماتت فيه ، وذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ضرب له فى هذه الغزاة بسهمه وأعطاه أجره كأنه قد حضرها وحارب فيها مع المحاربين[1]. ثم بالله هل كان يمكن أن ينقل ابن إسحاق قول عمر، أثناء غزوة الحديبية ، للنبى عليه السلام فى عثمان : « إنه أعزّ فى مكة منى » لو كان صاحب السيرة يعمل على التصغير من قدره ؟ أم هل كان من الممكن أن يذكر أن سبب أخذ الرسول بيعة الرضوان من المسلمين فى تلك الغزوة هو غضبه ﷺ لما أشيع عن مقتل عثمان حين احتبسته قريش عندها وقد جاءها يبلغها رسالة النبى بأنه لم يأتهم محاربا بل معتمرا؟ أم هل كان من الممكن أن يورد رفض عثمان، عند لقائه بقريش لتأدية الرسالة المذكورة ، أن يطوف بالبيت قبل طواف النبى عليه السلام ؟ أم هل كان من الممكن أن ينص على أن الرسول بايع لعثمان فى غيابه لدى قريش ضاربا لذلك إحدى يديه الشريفتين بالأخرى ؟ [2] ولا ننس أيضا ذِكْرَه زواج النبيِ من رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة)، التى كان زوجها قد تنصر وتُوُفِّىَ بالحبشة فأرسل ﷺ إلى نجاشيها فزوجه إياها وكيلا عنه[3]، وبخاصة أنه عليه السلام لم يتزوج من أية هاشمية.

---

(١) المرجع السابق / ٢ / ٢٣٣ .

(٢) السابق / ٣ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) السابق / ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٦ و٣ / ٢٣٥ .

وبالمثل فإن ما قاله ابن إسحاق فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ينقض من أساسه ما أراد د. مراد إلصاقه به من أنه أراد الغض من قدرهما تقربا لبنى العباس . والحق أنى لا أستطيع أن أتذكّر سبباً يدعو بنى العباس إلى معاداة العُمَرَيْن ، إذ لم يكن لدى العباس ولا ابنه عند موت الرسول ﷺ مطمع إلى الخلافة . إنما ابتدأ العباسيون يتطلعون إليها فى أواخر عهد بنى أمية ، وكان ذلك من خلال مناصرتهم لأنصار علىّ، حتى إذا ما تم لهم النصر على الأمويين وقَضَوْا على دولتهم رأيناهم يقلبون ظهر المجنّ لأحفاد علىّ ويحتجنونها لأنفسهم دونهم قائلين إن العم أحقُّ بالإرث من الختَن ، واصطرع شعراء الفريقين فى جدال حول هذه النقطة الفقهية . ومع هذا فلنقلّب صفحات « السيرة » لنرى أيسوّغ ما قاله ابن إسحاق فى الخليفتن الأولين دعوى د. مراد التى مرت الإشارة إليها من توّها . لقد ذكر ابن إسحاق أن أبا بكر قد دخل فى الإسلام أول واحد من الرجال أو ثالث واحد من الذكور ، أى قبل حمزة وجعفر والعباس أنفسهم وسائر الهاشميين ما عدا عليا ، وأَبْرَزَ دوره الخطير فى إدخال نفر من سادة قريش فى الدين الجديد مستغلا الودّ الذى كانت قريش تحمله له من جراء دماثة خلقه وسجاحة نفسه ، فأسلم على يديه عثمان والزبير وابن عوف وسعد وطلحة ، علاوة على إسلام ابنتيه عائشة وأسماء . كما أورد كلمة الرسول العظيمة فى حقه

حين قال : « مادعوتُ أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبّوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة . ما عكَم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه »[١]. على أنه ، رضى الله عنه ، لم يكتف بهـذا بل أدخل أيضا عددا من الضعفاء الـمُسْتَرقّين فى الإسلام بعد أن اشتراهم وأعتقهم فى سبيل الله ، مما دفع أباه إلى لومه لأنه يعتق الضعفاء وكان أحرى به ، فى رأيه ، أن يعتق رجالاً أقوياء يقفون إلى جانبه ويدافعون عنه ساعة الشدة ، فكان ردّه عليه أنه إنما فعل ما فعل لوجه الله عز وجل ، فأنزل الله فيه النصف الأخير من سورة « الليل » يثنى على عمله النبيل ويبشره باليسرى[٢] .

ومما ذكره ابن إسحاق عن أبى بكر أيضا موقفه مما حكاه الرسول عليه السلام عن إسرائه إلى بيت المقدس ، إذ بلغ الأمْرُ أن شكَّ كثير من المسلمين أنفسهم فى الخبر وارتدوا عن الإسلام ، أما أبو بكر فقد أعلن بقوة أمام الجميع أنه يصدق كل كلمة قالها الرسول الكريم فسماه عليه السلام لذلك بـ « الصديق »[٣]. كما ذكر ابن إسحاق أيضا دفاعَ الصدّيق عن الرسول أذى بعض القرشيين الذين خنقوه بمجمع ردائه ، واتخاذَه ، رضى الله عنه ، فى داره مسجدا ، ورقّةَ نفسه وبكاءه عند

---

(١) السابق / ١ / ٢٣٠ ـ ٢٣٤ .

(٢) السابق / ١ / ٢٧٧ ـ ٢٧٩ .

(٣) السابق / ٢ / ٣٣ ـ ٣٤ .

تلاوته القرآن ، وتعرضه رضوان الله عليه للإيذاء من سفهاء قريش[١] . وبالمثل وقف طويلا عند صحبته للرسول فى الهجرة إلى المدينة ، ذلك الشرف الذى لم يُكْتَبْ لأحد غيره وخلّده القرآن فى آية كريمة من آياته، وكذلك الاستعدادات التى اتخذها هو والرسول لإنجاح تلك الهجرة ، والأذى الذى حاق بابنته أسماء على يد أبى جهل بسبب اشتراكها فى التعمية على الجهة التى انطلق فيها الصاحبان[٢] . كما نبه ابن إسحاق على أن أبا بكر هو أيضا الوحيد الذى كان مع الرسول فى العريش يوم بدر وهو يبتهل إلى ربه أن ينصره وينصر دينه وأتباعه[٣] ، ونَصَّ على عهد الرسول له بالحجّ بالناس سنة تسع للهجرة[٤] .

وعند حديث ابن إسحاق عن مرض الرسول الأخير نراه يورد ما قاله ﷺ عن أبى بكر ، إذ طلب من المسلمين أن يسدّوا جميع الأبواب النافذة إلى المسجد إلا باب أبى بكر ، ثم أضاف قائلا : « فإنى لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده »[٥] ، ثم قوله ، لما اشتد عليه المرض ،

---

(١) السابق / ١ / ٢٥٩ ، و ٢ / ١٦ _ ١٧ .

(٢) السابق / ٢ / ٩٢ _ ٩٩ .

(٣) السابق / ٢ / ١٩٦ .

(٤) السابق / ٤ / ١٣٩ .

(٥) السابق / ٤ / ٢١٩ .

لأصحابه : « مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس »[١] ، وائتمامه به فى إحدى الصلوات[٢] . والعجيب أن ابن إسحاق المتَّهَم من قِبَل بعض القدماء بالتشيع ومن د. مراد بممالأة العباسيين لم يقل فى كتابه إن رسول الله قد أوصى لأحد من بنى هاشم بأن يَخْلُفه من بعده ، بل قال عكس هذا على طول الخط قولا صريحا ليس فيه أية مواربة ، إذ لما طلب العباس من علىّ قبيل وفاة الرسول أن يصحبه فيدخلا على الرسول ليعرفا هل يريد استخلاف علىٍّ علَى أمور المسلمين أَوْ لا رفض علىٌّ رفضا باتًا لتقف المسألة عند هذا الحد . وعندما اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ورشَّح عُمَرُ أبا بكر للخلافة مثنياً عليه أورد ابن إسحاق كلام عمر هذا إيراد من لا يجد فيه مجالاً للاعتراض أو الإنكار[٣] . فهل بعد هذا من برهان على أنه لم يكن يحمل لأبى بكر فى نفسه أى ضِغْن ؟ وهل بعد هذا من برهان على أن الحديث عن ممالأته للعباسيين هو حديث ظالم ؟

كذلك كيف يمكن أن يكره عُمَرَ رجلٌ يصفه بما وصفه ابن إسحاق فى كتابه من أنه « كان رجلا ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره » وأن أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا به وبحمزة من أذى قريش ، أو يورد كلام ابن مسعود الذى يقول فيه : « ما كنّا نقدر على أن نصلى

---

(١) السابق / ٤ / ٢٢١ .

(٢) السابق / ٤ / ٢٢٢ .

(٣) السابق / ٤ / ٢٢٥ ـ ٢٢٨ .

عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » ، أو ينقل كلام خبّاب بن الأرتّ له فى بيت أخته فاطمة حينما شام منه أنه يوشك أن يعلن إسلامه ، إذ قال : « والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » ، أو يروِى أن الرسول ، عندما أعلن عمر أمامه إسلامه فى دار الأرقم ، صاح قائلاً فى فرحة : « الله أكبر » ، وصاح من معه بالدار جميعا يكبرون ، ثم يمضى فيقص كيف أتى الفاروق قريشا بعد ذلك عند الكعبة فكشف لهم عن إسلامه وتحداهم واشتبك معهم فى عراك نالوا فيه منه ونال منهم ؟

أم كيف يمكن أن يكره عُمَرَ رجلٌ يحكى موافقة الوحى له فى عدد من مواقفه وآرائه كما فعل ابن إسحاق حينما ذكَر أن عمر قد رأى فى المنام مَنْ حذّره من اتخاذ المسلمين الناقوس للنداء إلى الصلاة وأمره بدلا من هذا باستعمال الأذان ، وحينما ذكَر موقفه من أسارى بدر ، إذ اقترح على النبى قتلهم ، بينما كان رأى الصدّيق قبول الفدية منهم وإطلاق سراحهم ، ونزل الوحى فى صف عمر عاتبا على النبى قبول الفداء ؟ أم كيف يمكن أن يكره عُمَرَ رجلٌ يبرِز ، كما أبرز ابن إسحاق ، دوره يوم السقيفة فى وأد الفتنة فى مهدها ، تلك الفتنة التى نجمت من اختلاف المهاجرين والأنصار حول من ينبغى أن يَخْلُف رسول الله فى حكم المسلمين ، إذ أخذ أبا بكر مسرعاً إلى هناك وخطب فى

القوم مثنيا على الصدّيق ثم مدّ يده فبايعه ليبايعه الناس عقب ذلك ولتزول الفتنة التي كادت أن تعصف بالدولة الجديدة ؟[١] أم كيف يمكن أن يكره عمرَ رجلٌ يحرص ، كما حرص ابن إسحاق ، على أن يذكر أن قبيلة بني عدى بن كعب (قبيلة الفاروق) كانت من القبائل القرشية القليلة التى لم يخرج منها أحد لقتال المسلمين فى بدر ؟[٢]

ولعل من المناسب والمفيد أيضا أن نختتم كلامنا فى هذا الأمر بما أكده ألفرد جيّوم من أن ابن إسحاق ، رغم ميله العَلَوِىّ كما يقول ، لم يحاول الغض من إخلاص أبى بكر الوثيق ولا من حماسة عمر وجسارته، مما يدل على أن هذا الميل لم يخرجه عن اعتداله وتوازنه[٣] .

والطريف أن ابن إسحاق ، المتهم من الدكتور محمود على مراد بأنه قد راعى العباسيين أثناء كتابته للسيرة ومالأهم وشوه الحقائق التاريخية من أجل إرضائهم والتقرب إليهم ، هو نفسه الذى قال عنه ألفرد جيوم المستشرق البريطانى إنه كانت فى « سيرته » أشياء لا ترضى العباسيين قام ابن هشام بتنقيتها[٤] . مسكين ابن إسحاق ! إنه يتهم بالشىء ونقيضه ، فما العمل ؟ العمل هو ما عملناه فى الصفحات الماضية ، إذ تركنا سيرة ابن إسحاق تتكلم بنفسها عن نفسها دون أن نقسرها على أن

---

(١) السابق / ٢ / ١١٢ ، و٣ / ٣٣١ _ ٣٣٢ ، و٤ / ٢٢٥ _ ٢٢٨ .

(٢) السابق / ٢ / ١٩١ .

(3) Guillaume, The Life of Muhammad, p. XXXIV .

ومع هذا فإنى لم ألحظ فى سيرة ابن إسحاق ما يدل على تشيع لعلىٍّ البتة .

(4) Guillaume, The Life of Muhammad, pp. XXII, XLII .

تنطق بما فى نفوسنا نحن .

ومن جهة أخرى فإن ما قاله ابن إسحاق فى « سيرته » لا يخرج عما قاله غيره من كتاب السِّيَر والمؤرخين ، اللهم إلا أن بعضهم قد يقدم بعض الوقائع أو يؤخرها ، وبعضهم قد يتوسع فى بعض التفاصيل أو يختصرها ، وبعضهم قد يبرز هذا الأمر أو ذاك أكثر مما فعل ابن إسحاق ... إلخ . وليرجع من شاء إلى الطبرى أو ابن كثير أو ابن الأثير أو المسعودى فى تواريخهم أو إلى كتّاب السِّيَر والمغازى ، ولسوف يجدهم يقولون ما قاله ابن إسحاق ، اللهم إلا بعض الخلاف فى النقاط التفصيلية . حتى المستشرقون الذين ترجموا للنبى عليه الصلاة والسلام وسجلوا أحداث حياته لم يخرجوا عن الإطار الذى رسمه ابن إسحاق فيما عدا بعض التفاصيل كما قلنا . يستوى فى ذلك سيل وإرفنج وموير ومرجليوث وبودلى ووليم مونتجمرى واط ومارتن لِنجْز وكارين أرمستروнг وساقارى ودرمنجم وروونسون وجورجيو (الدبلوماسى الرومانى) وغيرهم .

ثم إن هناك بضعة أسئلة لا بد من وضعها بين يدى القارئ حتى ينجلى له وجه الحق بيّنًا ساطعا ، وذلك إن لم يكن قد انجلى بعد كل ما تقدم . وهذه الأسئلة هى : هل كان ابن إسحاق وحده هو الذى يعلم وقائع السيرة النبوية بحيث يستطيع أن يتلاعب بها كما يهوى دون أن يكشف عبثه أحد ؟ والجواب بالطبع هو : كلاً . ومعنى ذلك أنه لو كان قد أفسد سيرة النبى لقد كان هناك كثيرون غيره يعرفونها على

وجهها الصحيح ، فلماذا سكتوا ولم يحاولوا فضح هذا الفساد ؟ أكانوا يخافون ابن إسحاق وقد كان مجرد عالم كسائر العلماء ليس فى يده ما يرهبهم به ؟ أم كانوا يخافون من العباسيين ؟ لكننا نعرف أنه مهما قسا الحكام بالرعية واستبدوا ونكّلوا بمن يخالفهم فإن ذلك لا يمنع من وجود من يعارضهم باللسان والقلم والسلاح ، فلماذا شذ الأمر هنا فلم يظهر من يعارض ما كتبه ابن إسحاق بالباطل تزلُّفاً إليهم ؟ هل عقمت الأمة فى هذا الأمر فلم يبرز منها عالم شجاع يقول الحق ولو من بين صفوف أعدائهم ، وهم كثير ، مثلما كان هناك شعراء يعارضونهم ويهجونهم فى أشعار عبرت القرون إلينا دون أن يستطيع أحد أن يطمسها أو يخفيها ؟ أيكون الدين أهون على أمة محمد من الشعر حتى تحافظ على هذا وتهمل ذاك ؟ إن ما يقوله د. مراد عن سيرة ابن إسحاق ليشبه إلى حد بعيد ما قاله من قبْلُ المستشرق البريطانى مرجليوث حين وضع بحثا فى سنة ١٩٢٥م أنكر فيه وجود الشعر الجاهلى والإسلامى وزعم أن المسلمين فى العصر العباسى هم الذين اخترعوه وأضافوه إلى من سمَّوْهم بامرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير والأعشى والنابغة ... إلخ ، متهما بذلك الأمة من طَرْفٍ خفىّ بأنها أمة من الكذابين والأغبياء(١) كما بينت فى الدراسة التى فنّدتُ فيها هذه النظرية المرجليوثية

---

(١) فأما الكذّابون فهم الذين اخترعوا هذا الشعر واخترعوا له أصحابا نسبوه إليهم ، وكذلك الذين واطأوهم على هذا التزييف ، وأما الأغبياء فهم الذين جازت عليهم هذه الخدعة ولم يستطيعوا اكتشافها .

السخيفة[١]. وهذا كله إن سلمنا أن ابن إسحاق هو فعلا رجل لا يستحق الثقة ويمكن أن يُقْدِم على ما نسبه إليه الأستاذ الدكتور.

على أن شيئا مُهِمًا فات الأستاذَ الدكتور ، ألا وهو أن هناك كُتّاب سِيَرٍ ومَغَازٍ سبقوا ابن إسحاق . وبين أيدينا عملان لاثنين منهم هما عروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى . وإذا كان د. مراد يتهم ابن إسحاق بممالأة العباسيين والأنصار وتزوير التاريخ من أجلهم ، فإنه لا يستطيع توجيه مثل هذه التهمة لذَيْنِك العالمين من رجال العصر الأموى ولا يمكن من ثَمَّ القول بأنهما كانا يمالئان بنى العباس . ذلك أن الدولة العباسية لم توجد إلا بعد موتهما . كما أنهما لم يكونا من الأنصار أو مواليهم ولا من بنى هاشم (وإن كانا قرشيين) ، وكلاهما يقول ما قاله ابن إسحاق بوجه عام . وهناك أيضا ابن حزم ، الذى كان يعيش فى ظل الدولة الأموية الأندلسية المعاصرة للدولة العباسية ووَزَرَ هو وأبوه للأمويين هناك ، ومن هنا كان بعيدا كل البعد عن مجال تأثير بنى العباس والتحيز للأنصار ، ومع ذلك فهو يقول ما قاله ابن إسحاق فى « سيرته » .

ونبدأ بعروة بن الزبير ، الذى تحدث هو أيضاً فى كتابه « مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم » عن قلة المسلمين بمكة والفتن التى كانت تنصبّ عليهم من كل جانب وأمْرِ الرسول لهم بالخروج إلى

---

(١) بحث مرجليوث المذكور هنا هو « أصول الشعر العربى » ، وقد ترجمتُه ورددتُ عليه فى دراسة ملحقة بالترجمة (نشر دار النهضة العربية وتوزيع مكتبة زهراء الشرق / القاهرة / ١٩٩٦م) .

أرض الحبشة والاحتماء بملكها الصالح الذى لا يُظلَم عند أحد [(١)]، والمحاورة التى دارت بين رسولَىْ قريش ومهاجرى المسلمين فى بلاط ذلك الملك بما لا يخرج عما قاله ابن إسحاق إلا فى بعض التلوينات الثانوية [(٢)]، ومحاصرة قريش لبنى هاشم فى شِعْب أبى طالب الذى كان يعطف على ابن أخيه ويخاف عليه أذى قريش أشد ما يكون العطف والخوف [(٣)]، وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وتعرّضه للإهانة والرمى بالحجارة والتجائه إلى بستان ابنى ربيعة ومقابلته غلامهما عداساً النصرانى هناك وكلامه معه عن يونس بن متى عليه السلام وإكباب ذلك الغلام على قدمى رسول الله يقبلهما [(٤)]، وأحداث العقبتين ومعاهدة الأنصار إياه فى الثانية على حمايته وقتال من يحاول مسّه بأذى، وحضور العباس تلك المعاهدة للاطمئنان على مصير ابن أخيه مع هؤلاء القوم [(٥)]، وهجرة المسلمين إلى المدينة ثم هجرة الرسول وأبى بكر واختبائهما فى الغار من مطاردة قريش لهما [(٦)]، والثناء الجم

(١) عروة بن الزبير / مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم / تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمى / مكتب التربية العربى لدول الخليج / الرياض / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م / ١٠٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٧.

(٢) المرجع السابق / ١١١ - ١١٤.

(٣) السابق / ١١٤ - ١١٥.

(٤) السابق / ١١٨ - ١١٩.

(٥) السابق / ١٢٥ - ١٢٧.

(٦) السابق / ١٢٧ - ١٢٩.

على الأنصار لما خصّهم الله به من كرامة قبولهم الإسلام والتحمس له[1] ... إلخ .

وقد كان باستطاعة عروة ، لو لم يكن يخاف الله ويبتغى بكتابه وجه الحق ، أن يكتم مثلاً وقوف أبى طالب بجوار الرسول عليه السلام وشجاعة جعفر فى الجهر بعقيدة الإسلام فى بلاط النجاشى النصرانى بما يخالف اعتقاد النصارى فى عيسى بن مريم عليه السلام . أليس أبو طالب هو والد علىّ ، الذى لم تكن الأمور تجرى سلسة بينه وبين عائشة خالة عروة ؟ ثم أليس جعفر أخا علىّ أيضا ؟ كذلك لو كانت المسائل على النحو الذى يتخيلها د. مراد لما ذكر عروةُ أباه الزبير على رأس قائمة المهاجرين إلى الحبشة ، إذ يتهم د. مراد ابن إسحاق بأنه ، حينما أورد فى « سيرته » عزْم أبى بكر على الهجرة إلى الحبشة ، إنما أراد التصغير من شأنه بتصويره رجلا فرّارا يعمل على النجاة بجلده من الأذى دون التفكير فى رسول الله ، الذى خلّفه وراءه فى مكة هدفا لإيذاء المشركين على ما سوف يأتى بيانه .

وبعد عروة يأتى ابن شهاب الزهرى . وهو أيضا ، مِثْلَ عروة ، قد تُوُفِّىَ قبل قيام الدولة العباسية ، إذ انتقل إلى رحمة ربه سنة ١٢٤ هـ ، كما أنه كان قرشيا ، أى مكّىّ الأصل ، ومع ذلك نجد فى « مغازيه »

---

(١) السابق / ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٣١ .

نفس الأحداث التى ذكرها ابن إسحاق وعلى نفس النحو التى ذكرها بها هذا العالم الجليل ، وذلك رغم أن كتابه لا يغطى سيرة النبى عليه السلام كاملة بل يركز على المغازى مع لمس بعض أحداث المرحلة المكية أحيانا . لقد روى ذلك العالم الجليل قصة حفر زمزم مثلما رواها ابن إسحاق مع بعض الاختلافات الطفيفة ، إذ (كما هو الحال عند ابن إسحاق) نجد الرؤيا التى تكررت لعبد المطلب ونسمع الهاتف الذى أتاه وهو نائم عند الكعبة يدله على موضع زمزم بعبارات قصيرة مسجوعة ... إلخ[١] . كما ذكر ابن شهاب كفالة أبى طالب لمحمد اليتيم بعد وفاة جده أبى طالب وحَدْبه عليه وتقريبه له ، وتحدث عن سرّية الدعوة فى سنواتها الأولى ثم الجهر بها إثر نزول قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تُؤْمَر ، وأَعْرِضْ عن المشركين ﴾[٢] ، وأبرز شدة عمر على رسول الله فى بداية الأمر ثم الانقلاب الذى حدث له وأدى إلى دخوله فى الإسلام إثر ضربه لأخته وزوجها عندما علم بإسلامهما ، وإن كان يجعل الرواية الأخرى التى رواها ابن إسحاق عن إسلامه رضى الله عنه مجرد امتداد للرواية التى تتحدث عن أخته وضربه إياها مع شىء من الاختلاف[٣] . وبالمثل

---

(١) ابن شهاب الزهرى / المغازى النبوية / تحقيق سهيل زكار / دار الفكر / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م / ٣٧ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق / ٤٦ ، ٧٤ .

(٣) السابق / ٤٦ ـ ٤٧ .

يتحدث عن الهجرة إلى الحبشة ويذكر أسماء بعض من قاموا بها[١] وعزم أبى بكر على اللحاق بهم ثم عودته مع ابن الدُّغُنَّة ، الذى أجاره من أذى قريش ، وتحلله بعد ذلك من هذا الجوار حينما رأى أنه قد أصبح قيداً عليه وعلى دينه[٢] ، ثم صحبته بعد ذلك لرسول الله فى هجرته إلى يثرب ومطاردة قريش لهما . بل إنه ليذكر تفصيلة لم ترد عند ابن إسحاق ، وهى نسج العنكبوت خيوطها على باب غار ثور ، الذى اختبأ فيه[٣]. وكمثل ابن إسحاق نراه يروى لنا حكاية الشيطان الذى اتخذ هيئة شيخ نجدى ، مع بعض التفصيلات التى لا نجدها فى سيرة ابن إسحاق[٤] . كما بين أن أول آية نزلت فى إباحة القتال هى : ﴿ أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[٥].

وإنى لمقتصرٌ على هذا لأنه هو الذى ينكره د. مراد على ابن إسحاق ويدعى أن حقيقة الأمر بخلافه . وأكرر مرة أخرى أن كتابى عروة وابن شهاب هما أساساً فى « المغازى » (أى فى غزوات الرسول فى المدينة) لا فى السيرة كلها .

وها نحن أولاء نصل إلى ابن حزم وكتابه « جوامع السيرة النبوية » .

---

(١) السابق / ٩٦ .

(٢) السابق / ٩٧ _ ٩٨ .

(٣) السابق / ٩٨ _ ١٠٢ .

(٤) السابق / ١٠٠ .

(٥) السابق / ١٠٥ .

وقد قلنا إن ابن حزم ، وإن عاصر الدولة العباسية ، فإنه لم يعش تحت سلطانها ، إذ هو من سكان الأندلس ، التى كان يحكمها آنذاك بنو أمية، وفوق ذلك فقد تولى هو وأبوه الوزارة لهم . ليس ذلك فقط ، بل كانت أسرته من موالى الأمويين (موالى يزيد بن أبى سفيان على وجه التحديد)[١] . وعلى هذا فلا مجال للقول بأنه كان يراعى العباسيين أو الأنصار فيما سطر من وقائع السيرة المحمدية . فإذا طالعنا ما كتبه فى هذه السيرة وجدناه هو نفسه ما كتبه ابن إسحاق ، اللهم إلا بعض الاختلافات القليلة الضئيلة التى لا تقدم ولا تؤخر . ولو كان ابن إسحاق قد حابى بنى العباس أو الأنصار على حساب الحقيقة لما سكت ابن حزم، فقد كان رضى الله عنه ذا شخصية قوية مستقلة ، وكان يصدع بالحق لا يبالي . ويكفى أنه قد استقل بمذهب فقهى خاص به خالف فيه الجو السائد في بلاد الأندلس ، وهو المذهب الظاهرى ، وله رأى فى الغناء يختلف عن آراء معظم علماء الدين . فما الذى نجده فى « جوامع السيرة » ؟

لقد ذكر ابن حزم أن الدعوة المحمدية مرت فى بداءة أمرها بفترة استخفاء « ثم أعلن رسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله عز وجل وجاهرته قريش بالعداوة والأذى ، إلا أن أبا طالب عمه كان حدبا عليه مانعا له وهو باقٍ على دين قومه »[٢]. وكان قبل ذلك قد ذكر أنه هو الذى

---

(١) انظر مقدمة « جوامع السيرة النبوية » / إعداد أحمد حسن جابر رجب / ملحق مجلة الأزهر / جمادى الأولى ١٤١٣هـ / ١ / ٤ .

(٢) ابن حزم / جوامع السيرة النبوية / ١ / ٨٠ .

كفله بعد موت جده ، « وكان به رفيقا ، وقد خفف الله تعالى بذلك من عذابه ، فهو أخف أهل النار عذابا »[١] . كما جعل ابن حزم عمّ الرسول الثانى أبا لهب وابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من رؤوس قريش المجاهرين بالأذى والعداوة له عليه الصلاة والسلام[٢] ، وكذلك عرض للهجرة إلى الحبشة وبيّن أن سببها هو انتشار الإسلام واشتداد عذاب قريش للمسلمين من جرّاء ذلك ، وذكر أسماء من قاموا بتلك الهجرة ولم يكن بينها من رجال بنى هاشم إلا جعفر بن أبى طالب وحده رضوان الله عليه[٣] ، وقصّ نبأ الرسولين اللذين بعثت بهما قريش إلى النجاشى ليوغرا صدره عليهم وفشلهما فى ذلك[٤] ، وكذلك نبأ الحصار الاجتماعى والاقتصادى الذى ضربته قريش على بنى هاشم وبنى المطلب[٥] بغية إجبارهم على التخلى عن رسول الله ، والصحيفة التى كتبوها فى ذلك ، والمعاناة التى قاساها الرسول وعشيرته بسبب هذه المقاطعة ... إلخ[٦] ، وعزْم أبى بكر على الهجرة إلى الحبشة أسوة بمن سبقه إليها من المسلمين ورجوعه من الطريق مع ابن الدُّغُنَّة ،

---

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٥ .

(٢) السابق / ١ / ٨٠ .

(٣) السابق / ١ / ٨٤ ، ٨٦ .

(٤) السابق / ١ / ٩٢ .

(٥) إلا أبا لهب ، الذى انحاز لقريش ضد عشيرته .

(٦) السابق / ١ / ٩٣ _ ٩٤ .

الذى رفض أن يتركه يغادر وطنه [١] .

وتذكر « جوامع السيرة النبوية » أيضاً التقاء الرسول عليه السلام بأهل المدينة والبيعتين اللتين بايعوه عليهما : بيعة العقبة الأولى ، التى سماها (كما سماها ابن إسحاق) « بيعة النساء » قائلا إنهم « لم يكونوا أُمِروا بالقتال بعد » وإن الرسول قد بعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن ويدعو إلى الإسلام من لم يكن قد أسلم منهم ، وكانت النتيجة أن « لم تبق دار من دور الأنصار[٢] إلا وفيها مسلمون رجالا ونساء حاشا بنى أمية بن زيد وخطمة وواقف ... ثم أسلموا كلهم (بعد بدر وأُحدٌ والخندق) »[٣] . ثم بيعة العقبة الثانية ، وهى التى « بايعوا رسول الله ﷺ (فيها) على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأُزُرَهم وأن يرحل هو إليهم وأصحابه » ، وحضرها العباس عمه رغم بقائه على دين قومه آنذاك ليطمئن على ابن أخيه وعلى أن أهل المدينة سيحمونه فى مُهَاجَره[٤] . وتمضى « جوامع السيرة النبوية » فتتحدث عن الهجرة الجماعية للمسلمين ثم تعقبها بالحديث عن هجرة النبى والصدّيق بعد أن ائتمرت قريش على قتله ﷺ ومطاردتها لهما واختبائهما فى الغار ... إلخ . وفى كل ذلك يسمى ابن حزم أهل

---

(١) السابق / ١ / ٩٤ .

(٢) لاحظ كيف سمّاهم « أنصاراً » منذ أول لقاء لهم بالرسول ، وهو ما أنكره الأستاذ الدكتور على ابن إسحاق .

(٣) السابق / ١ / ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) السابق / ١ / ١٠٥ .

المدينة بـ « الأنصار » (١) ، ويقول عنهم : « كان من صُنْع الله تعالى لهم أنهم كانوا جيران اليهود ، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالى يبعث نبيا قد أظل زمانه ، فقال بعضهم : هذا والله النبى الذى يتهددكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه . فآمنوا وأسلموا وقالوا : إنا قد تركنا قومنا وبينهم حروب فننصرف إليهم وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمع كلمتهم بك ، فإن اتبعوك فلا أحد أعزّ منك . فانصرفوا إلى المدينة فَدَعَوْا إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ » (٢) . وهذا كله هو نفس ما تقوله سيرة ابن إسحاق ، الذى يتهمه الدكتور مراد بأنه زوّر ذلك تقربا لخلفاء بنى العباس ، وهو ما سوف نناقشه تفصيلا فيما يلى من صفحات .

---

(١) السابق / ١ / ١٠٥ .

(٢) السابق / ١ / ٩٩ _ ١٠٠ .

(٢)

تلك هى الخطوط العامة ، والآن إلى التفاصيل :

وأول ما نقف عنده من كلام د. مراد قوله إن القرآن هو المصدر الوحيد الذى اعتمد هو عليه فى كشف زيف ما كتبه ابن إسحاق عن سيرة النبى عليه السلام ، وإن اعترف رغم ذلك أن القرآن لا يحتوى إلا على القليل من الأحداث التاريخية[١]. وقد أشار فى هذا السياق إلى المرحوم محمد عزّة دروزة ، الذى وصفه بأنه أول من أشار إلى أن سيرة ابن إسحاق تقدم للنبى صورة مزيفة تختلف عما جاء فى القرآن الكريم ، وأنه كتب سيرة للرسول عليه السلام تكاد أن تقتصر على ما ورد عنه فى القرآن [٢].

والحق الذى لا مِرْيَة فيه هو أن القرآن الكريم لا يصلح أن يكون مصدراً وحيدا لسيرة النبى عليه السلام ، إذ ليس فيه تواريخ ولا أسماء أشخاص ، وقلما يذكر أحداثا أو يعيّن مواقع ، كما أنه لا يعتمد الترتيب التاريخى فى حكاية ما يقصه عن الرسول الكريم رغم قلته . إنه مثلا يخلو خلوّا تامًا من أى حديث عن ميلاد النبى أو عشيرته أو أبيه وأمه أو جده وعمه أو أبنائه وزوجاته ، اللهم إلا إشارة عارضة عن يتمه وفقره فى سورة « الضحى » وإشارتين عارضتين مثلها عن زوجاته فى سورتى « الأحزاب » و « التحريم » ، وليس فيه من حديث عن

(1) Mahmoud Ali Mourad, La Biographie du Prophète , p. 9 .

(٢) المرجع السابق / ٦ .

وقائع الأذى الذى ألحقتـه به قريـش وسفـهاء الطائـف سوى قول أهل مكة عنه إنه « ساحر وكذاب وكاهن ومجنون » . كذلك لا يوجد فيه ذكر للحبشة ولا للمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التى فرضتها قريش عليه ﷺ هو وعشيرته . وأمامنا القرآن فلنقلّب فيه من أوله إلى آخره فلن نعثر فيه على اسم أى صحابى (إلا زيدا ، وباسمه الأول فقط) ولا عن الظروف التى أسلم فيها أو ألوان الإهانة والتعذيب التـى كان يتعرض لها من جـراء ذلك . وبالمثل لن يجـد البـاحـث فـى تاريـخ غــزوات الرســول اســم « أُحُد » أو « الحديبِيَة » أو « خيبـر » أو « تبـوك » أو « مؤتة » أو « بـنى قُرَيْظَة » أو « بنـى النضيـر » أو « بنـى قَيْنقَاع » أو « بنى المصطلق » أو كُتُب الرسول لملوك العـالم من حـوله ... إلخ ... إلخ. لن يجد من ذلك إلا اسم « بدر » « وحنين ». أما الأستاذ دروزة فإنه ، وإن جعل القـرآن مُنْطَلَقَهُ إلى كـتـابة سيرة للنبى عليـه الصـلاة والسلام ، لم يستطع الاستغناء، فى أية خطوة خطاها ، عن كتب التاريخ واالسيرة والحديث والتفسير ، فهوَ دائم الرجوع إلى ابن هشام والطبرى وابن سعد والبلاذرى والبخارى ومسلم والترمذى والبَيْهَقِيّ وابن حجر والزمخشرى والخازن والبَغَوِىّ وابن كثير والطَّبْرسى والنيسابورى والسيوطى والواحدى ، فضلا عن بعض المحدثين من المسلمين والمستشرقين[(١)] . وبالمناسبة فمُعْتَمَده الأول هو سيرة ابن هشام ، التى هى شرح لسيرة ابن

---

(١) وقد وهم د. محمد رأفت سعيد هو أيضا أن د. محمد حسين هيكل لم يعتمد فى « حياة محمد » إلا على القرآن الكريم ، وهو ما رددتُ عليه فى كتابى « محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا » (مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م / ٢٣٤ / هـ٣) .

إسحاق المتهم عند د. مراد . وبالمناسبة أيضا فإن الأستاذ الدكتور ، لندرة ما فى القرآن الكريم من وقائع وأسماء ، سوف يترك لخياله العنان واسعاً ويعيد صياغة السيرة على نحو لا يقبله العقل لأنه لا يستند فيه إلى شىء من كتب السيرة والتاريخ والحديث . ومن هنا تأتى المفارقة ، إذ رغم دعوته الحارة إلى الاقتصار فى تسجيل سيرة الرسول على القرآن الكريم نراه قد أهمل القرآن ومضى مع الخيالات الجامحة ، وتلك نتيجة طبيعية لإهمال ما كتبه القدماء والازورار عنهم واتهامهم ، دون دليل ، بالتزييف والوضع والخضوع لأهواء السياسة والعصبية .

ثم يناقش د. مراد ما ورد فى سيرة ابن إسحاق عن عبد المطلب جدّ الرسول [١] . وجريا على منهجه فى التشكيك فى كل شىء تقريبا نراه يقول إن تصدى عبد المطلب لأبرهة وجيشه معناه أنه كان سيد قريش ، على حين أنه لا يعدو أن يكون زعيما لبنى هاشم فحسب . والرد على ذلك يتلخص فى أن عبد المطلب كان يتولى سقاية الحجاج الذين يفدون إلى الكعبة ، وكان أبرهة يريد هدم الكعبة ، فمن الطبيعى أن يدور بينهما حوار فى ذلك الشأن . ولا غرابة إذن أن يكون عبد المطلب ، لهذا السبب على الأقل ، هو المتحدث باسم قريش إلى القائد الحبشى . أما استغراب د. مراد أن يسمى عبد المطلب ، فى حديثه مع قائد جيش أبرهة ، رسولَ الله إبراهيمَ بـ « خليل الله » وأن يقول : « عليه السلام » لأن هذا وذاك استعمالان إسلاميان صرفان ، فقد يكون استغراباً فى

(1) Le Biographie du Prophète, pp. 29 - 30 .

محله . لكن من الممكن أيضا أن تكون العبارتان من تعليق ابن إسحاق على كلام عبد المطلب ، أى جملتين اعتراضيتين أدخلهما فى كلام جدّ الرسول[١] . وكذلك يستغرب الأستاذ الدكتور أن يكون عبد المطلب مؤمنا بدين إبراهيم ، وفى نفس الوقت يعبد الأصنام ويسمى ابنا له « عبد العزّى » ويفكر فى ذبح واحد من أبنائه عند الكعبة . ولكن من السهل تفسير ذلك ، فقد كان مَضَى على دين إبراهيم آلافُ السنين ، وهى كفيلة بإفساد أشياء كثيرة فى دين أبى الأنبياء ، ومن هنا اختلطت بقايا هذا الدين مع عدد من العقائد والشعائر الوثنية . وهذا أمر غير مقصور على ديانة إبراهيم بل تعرضت لها كل الأديان تقريبا .

ومما يعترض عليه د. مراد فى سيرة ابن إسحاق أيضاً ما يسمى بفترة الاستخفاء ، وهى السنوات الأولى التى كان النبى عليه السلام يدعو فيها إلى الإسلام سراً . وحجته فى ذلك أنه كان من المستحيل تخفّى المسلمين فى صلاتهم، التى لا بد أن تؤدى جماعة، وبخاصة أنهم كانوا يمارسونها خمس مرات كل يوم كان عليهم أثناءها أن يتركوا بيوتهم وأعمالهم ومتاجرهم ويذهبوا إلى مكان بعيد خارج مكة يقيمون فيه هذه

(١) كما يفعلِ بعض المسلمين حين يترجمون شيئاً مما كتبه المستشرقون عن النبى ، فإنهم قد يتبِعون اسمه بالصلاة والتسليم عليه رغم أنه لا وجود لذلك فى الأصل الذى يترجمونه . وقد يتبدلون باسم « محمد » لقب « النبى » أو « الرسول » رغم عدم اعتراف المستشرق الذى يترجمون عنه بنبوته صلى الله عليه وسلم .

الشعيرة . كما يتساءل : كيـف يكـون ثمّه استخفاء فى الوقت الذى لا بد أن يكون هنـاك مكيون تمت دعوتهم إلى الإسلام ولم يستجيبوا له ، فضلا عن أهليهم وأصدقائهم ممن تحدثوا إليهـم بهـذا الشأن ، وهو مـا يفـيـد أنه كـان هناك من يعلـم بأمـر النبى ودعـوته خـارج نطـاق المؤمنـين به ؟ (١)

ولا بد من المسـارعـة إلى إيضـاح الخطإ الذى وقع فـيـه الأسـتـاذ الدكـتور، إذ ظن ، بناء على كـلام ابن إسحاق فى هذا الشأن(٢) ، أنه كانت هناك خمس صلوات مفروضة منذ بداية الإسلام الأولى ، ولا بد من تأديتـهـا تأدية جـمـاعية ، إذ من المعروف أن الصـلاة إنما فُرِضَتْ خمس مرات فى اليوم والليلة فى ليلة الإسراء والمعراج(٣) . وقد ذكـر ذلك ابن إسحاق نفسه ووضَعَه بعد موت خديجة وأبى طالب ، أى فى أواخر المرحلة المكية وليس فى أوائلها . وزيادة على ذلك لم يكن الأذان قـد عُرِف بعـد ، والأذان هو الوسيلة لتـعـريف المسلمين بدخـول وقت الصلاة وللنداء عليـهم ليتـجـمع منهـم فى المسجـد من أراد تأديتـهـا مع الجماعة ، فكيف كان من الممكن تأدية الصلاة جماعة على هذا النحو المنتظم فى ذلك الوقت المبكر من الإسلام ؟ ثم إنه ليس بلازم أن تؤدّى الصلوات فى جـمـاعـة ، اللهم إلا فى الجـمـعـة والعيـدين ، وإن كـانت

---

(1) La Biographie du Prohète, p. 40 - 43 .

(٢) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٢٨ .

(٣) المرجع السابق / ٢ / ٣٩ .

تأديتها فى جماعة أفضـل من تأديتها علـى نحو انفرادى كما هو معروف . وقد رأينا ابن شهاب الزهرى وابن حزم يذكران فترة الاستخفاء ، ونفس الشيء نجده فى كل كتب السيرة والتاريخ التى نعرفها . ولماذا نمضى بعيدا وعندنا القرآن ، وفيه قوله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ فاصدع بما تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عن المشركين ﴾ [١] ، وهو يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك لم يكن يصدع (أى يجهر) بدعوته ؟ إلا أن الأستاذ المؤلف ينفى أن يكون فى أمر القرآن للرسول بأن « اصدع (بما تؤمر) » شيء جديد يختلف عن أمره إياه بالقراءة والإنذار فى مثل قوله قبل ذلك : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [٢] أو ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾[٣] ، ومن ثَمَّ فالأمر بالصَّدْع لا يمثل مرحلة جديدة لأن دعوة الرسول كانت منذ البداية علنية [٤] .

والواقع أن « الصدع » شيء مختلف عن مجرد القراءة أو الإنذار ، فإن القراءة (أى تبليغ الوحى للناس) وكذلك الإنذار يمكن أن ينحصرا فى دائرة الأصدقاء والمعارف المقربين الذى يطمئن الشخص إليهم ،

---

(١) الحجر / ٩٤ .

(٢) العلق / ١ .

(٣) المدثّر / ٢ .

(4) La Biographie du Prohète, pp. 58 - 59 .

ويمكن أيضا أن يخرجا عن هذه الدائرة الضيقة إلى نطاق الجماهير الواسعة . وهذا إن كانت آيتا سورة « الليل » و « النبإ » قد نزلتا فعلا قبل قوله عز وشأنه : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ . كما أن كتب التفسير تصف الآية الأخيرة بأنها تمثل بداية مرحلة جديدة هى مرحلة الاستعلان بالدعوة. كذلك ينبغى ألا ننسى أن أى داعية أو مصلح حين يواجه قومه بشىء جديد فإنما يتجه أول ما يتجه إلى أهل بيته وأصدقائه المقربين تحسسا لخطواته ، فإذا ما اطمأن فإنه يفكر حينئذ فى اكتساب أرض جديدة والخروج من هذا النطاق الضيق إلى أفق أرحب قليلا ... وهكذا . إن هذه هى طبيعة الأمور[1] ، فلماذا استغرابها فى حالة الرسول عليه السلام ؟

ومن المسائل الجديرة بالمناقشة فى رسالة د. مراد دعواه بأن « أصحاب الأخدود » الوارد ذكرهم فى سورة « البروج » هم بنو عبد المطلب عشيرة النبى الأقربين ، الذى أمر الرسول فى سورة «الحجر» بأن ينذرهم . والإنذار هنا ، حسبما يقول الأستاذ الدكتور ، هو إعلامهم بأن الله سبحانه سوف يعاقبهم على ما اقترفت أيديهم فى حق المسلمين الذين خدّوا لهم الأخدود وأضرموا فيه النيران وأحرقوهم فيه أحياء . فهذا، فى رأيه ، هو معنى إنذار الرسول عشيرته لا مجرد تبليغهم بالدين الجديد ودعوتهم إلى الدخول فيه . وعنده أن زعيم بنى عبد المطلب

---

(١) وفى القرآن الكريم أن نوحا عليه السلام قد اتبع الأسلوبين معا : السّرّى والعلنى فى دعوة قومه إلى الإيمان (نوح / ٩) .

الذى أمرهم بشق الأخدود وإلقاء المسلمين فيه بعد إضرامه بالنار هو أبو لهب ، الذى ورد ذكره فى سورة خاصة به فى القرآن ، والذى تعود تسميته بهذا اللقب إلى تلك الحادثة[١]. ولست أستطيع أن أدرى من أين جاء الأستاذ بهذا التفسير الغريب الذى لم يذكره أى شخص من قبلُ لا من المؤرخين ولا من كتاب السيرة ولا من رجال الحديث ولا من الأدباء أو الشعراء . ثم لماذا لم يقل القرآن إن أبا لهب هو زعيم أصحاب الأخدود ؟ كذلك فمن عادة القرآن ، إذا كان الإنذار بعقابٍ على جريمة معينة ، ألا يكتفى بذكر الإنذار مجردا كما فى آيتنا التى نحن بصددها بل يذكر معه العقاب الذى يهدد به ، مثل : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾[٢]، ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ﴾[٣] ، ﴿ وأنذِرْهم يوم الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ﴾[٤] ، ﴿ وأنذِرِ الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾[٥] ... إلخ . ألا يرى الأستاذ الدكتور أن ادعاءه هذا الذى لا يسنده القرآن هو خروج على المنهج الذى أعلنه فى بداية بحثه ، وهو الاعتماد على القرآن فى كشف أخطاء ابن إسحاق ؟

إن كتب التفسير والتاريخ والسيرة تشير ، عند تعرّضها لهذه الحادثة ، إلى ملك قديم (من العرب أو من غيرهم) كان يضطهد طائفة من

---

(١) المرجع السابق / ٦٠ ، ٨٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٢) الليل / ١٤ .

(٣) النبأ / ٤٠ .

(٤) غافر / ١٨ .

(٥) إبراهيم / ٤٤ .

رعاياه آمنوا بدين غير الدين الذى كان يعتنقه هو ورجال دولته فأضرم لهم ناراً فى حفزة ورمى بهم فيها عقابا لهم على انشقاقهم على دين الدولة الرسمي . وهذا تفسير مقبول جدا ، ولكن على أن يُفْهَمَ أن النصارى المضْطَهَدين فى هذه القصة كانوا من الموحدين لا من أهل التثليث ، وإلا لما وصفهم الله بـ « المؤمنين » .

وردًا على قول ابن إسحاق إن قوم الرسول إنما اشتدت عداواتهم له ﷺ لما ذكر آلهتهم وعابها يقول د. مراد إن القرآن كان قد ذكر قبل ذلك فى سورة « النجم » اللاتَ والعُزّى ومناة وعابها ، فكيف لم يعادوه فى حينها ؟ ثم إن القرآن منذ البداية يدعو إلى الوحدانية ، وهى على عكس الوثنية على طول الخط ، كما أنه يهاجم الأصنام على الدوام تلميحاً أو تصريحاً(١) . وفى الجواب على هذا نحب أن نذكّر بأن قريشا كانت تؤمن بالله وأنه هو الذى خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ... إلخ كما ورد فى القرآن الكريم نفسه ، وكذلك ينبغى ألا ننسى أن اقتصار دعوة الرسول فى بداية أمره على المقربين منه قد جنّبه الاحتكاك الحاد بقريش، ولكنه عندما انتقل من السرية إلى العلن اختلف الموقف ، وبخاصة بعد أن بدأ هجوم القرآن على الأصنام . أما بالنسبة إلى قول د. مراد إن دعوة القرآن إلى التوحيد هى هجوم غير مباشر على الآلهة ، فلا شك أن للهجوم الصريح وقعاً أقوى فى النفوس وأكثر استفزازاً للعداوات . أما آيات سورة « النجم » فمن قال إنها نزلت

(1) La Biographie du Prophète, pp. 94 - 95 .

قبل أن يصدع الرسول بدعوته ويعيب آلهتهم ؟ وعلى أية حال فإن ابن إسحاق لم يتعرض لهذه الآيات ، وعلى هذا فلا يمكن محاسبته بشأنها . أما فى الطبرى فإنها لم تنزل بعد أن صدع الرسول بدعوته فقط بل بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة بزمن[1] ، وقد ورد اسم ابن إسحاق عنده فى سلسلة السَّنَد الخاصة بإحدى روايتى قصة الغرانيق والآيتين المزعومتين اللتين قيل إنهما سمعتا عقب تلاوة النبى لقوله تعالى : ﴿ واللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾[2] ، ثم نبه جبريل محمداً عليه السلام إلى العبث الشيطانى الذى كان وراء سماعهما . وقد تسببت آيات سورة « النجم » فى مزيد من الأذى للمسلمين كما هو معروف .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / ط٤ / دار المعارف / ٢ / ٣٣٧ ـ ٣٤١ .

(٢) ونصهما : « إنهن الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لترتجى » ، وهما الآيتان اللتان أدار عليهما سلمان رشدي روايته « The Satanic Verses » . وقد سبق أن درستُ قصة هاتين الآيتين المزعومتين وبينتُ أنهما لا تمتان إلى القرآن بأدنى صلة فى كتابيَّ : « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ٣٠ ـ ٤٣ ، و « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنّية وموضوعية للآيات الشيطانية » / المطبعة النموذجية / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م / ٢٢٦ ـ ٢٤٧ . ثم توسعت بعد ذلك فى تفنيد هذه القصة فى كتابى « دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل » ، الذى تعاقدت على إصداره مع أحد الناشرين منذ أكثر من ثلاث سنوات وراجعت تجربتىْ طبعه الأوليين ولكنه لم يصدر بعد .

ويأخذ د. مراد على ابن إسحاق أنه ، في رسمه للفترة المكية السابقة على وفاة أبي طالب ، يجعل الصدارة لذلك العم بحيث تكسف شمسه نور النبى عليه السلام . أليس هو حاميه ؟ أليست قريش تلجأ إليه كلما جدّ سبب من أسباب الشكوى من ابن أخيه ؟ ألم يجرد ابن إسحاق النبى عليه الصلاة والسلام من الرهبة التى يضفيها عليه القرآن ومن دعم المسلمين له ؟(1) بيد أننا نتساءل بدورنا : وماذا كان على ابن إسحاق أن يفعل ؟ أكان ينبغى عليه أن يزيف وقائع التاريخ ؟ إن قريشا لم تكن تبالى بمحمد وبدعوته بل كانت تسخر منه أيما سخرية كما ذكر القرآن الكريم نفسه ، فكانوا يتهمونه بأنه ساحر وكاهن ومجنون وبأن بشرا يعلمونه القرآن ، كما كانوا يستصغرون شأنه لأنه ليس من أغنيائهم . وكانوا كلما هموا به تذكروا أبا طالب ، الذى يحظى باحترام قريش ، فيذهبون إليه ويشكونه له ويحاولون إيغار صدره عليه حتى يستطيعوا الانفراد به وإيذاءه دون أن يهبّ أحد من عشيرته لنجدته . ومن هنا كان لا بد لابن إسحاق من أن يذكر أبا طالب كثيرا ، لكنه فى ذات الوقت لم يحدث أن ذكره مرة دون أن يذكر معه الرسول ﷺ لأنه هو محور تلك اللقاءات التى كانت تتم بينه وبين رجالات قريش . ثم لقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ظل ماضيا على أمر الله مظهرا له لا يرده شيء عن هذه الغاية رغم ذهابهم إلى عمه وشكاياتهم إياه له ، وأن الأمر قد اشتد بينه وبينهم وحض بعضهم بعضا ضده وهو لا يبالى ، ثم ذهبوا إلى أبى طالب مرة أخرى وكرروا شكواهم من ابن أخيه وتركوه هذه المرة وهو

(1) La Biographie du Prophète, pp. 114 - 115 .

حيران موزّع النفس بين حرصه على ألا يكسب عداوة قومه وحرصه في نفس الوقت على ألا يُسْلِم ابن أخيه لهم . وكانت النتيجة أن أرسل إلى ابن أخيه وعرض عليه ما دار في نفسه ورجاه ألا يحمّله من الأمر ما لا يطيق ، لكن كان موقف الرسول حاسماً ، إذ ردّ عليه بجُمْع ثقته قائلا : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِره الله أو أَهْلِك فيه ما تركته »[1] . فكيف يقال إن محمدا لم يظهر في صدارة الصورة التي رسمها ابن إسحاق لهذه الفترة ؟ لقد رأينا أبا طالب حائراً يريد أن يمسك العصا من الوسط ، أما محمد فلم يكن عنده إلا موقف واحد وقول واحد هو المضي في طريقه وعدم المبالاة بأهواء قومه ولا بالإيذاء الذي كانوا ينزلونه به وبالمسلمين . على أن هذا ليس كل شيء ، فقد انفرد زعماء الشرك برسول الله ذات مرة في الكعبة فأخذوا يسخرون منه كالعادة ، والرسول ساكت في بداية الأمر ، لكنه في النهاية انفجر فيهم مهددا بقوله : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح » ، فألجمهم هذا الرد وأذهلهم ، حتى إذا أفاقوا من المباغتة أخذوا يسترضونه بليّن القول . ثم إنهم اجتمعوا في الغد في ذات المكان مرة أخرى وأنشأوا يذكرون ما وقع بينهم وبينه بالأمس ، حتى إذا طلع الرسول عليهم أحاطوا به وهددوه وأرادوا خنقه من مجمع ردائه وهو رابط الجأش يردد : « نعم ، أنا الذي أعيب آلهتكم ودينكم » . وقد

---

(١) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٣٨ ــ ٢٤٠ .

ضربوا أبا بكر يومها ضربا مبرّحا لأنه حاول الدفاع عن رسول الله ﷺ(١) . وهناك أمثلة أخرى مثل هذه ، فكيف يقال إن الرسول لم يظهر فى صدارة الصورة التى رسمها ابن إسحاق لتلك الفترة ؟ ولا ننس أن أبا طالب قد مات ، عند ابن إسحاق ، على دين قومه ، وعبثا حاول العباس أن يقنع الرسول عليه السلام أن أخاه قد نطق بالشهادتين وهو يجود بنفسه الأخير، إذ كان رده ﷺ أنه لم يسمع شيئا . وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى موضع آخر من كتابنا هذا .

أما استغراب د. مراد أن قريشا لم تقف مثل هذا الموقف من أى مسلم آخر ولا حتى جعفر بن أبى طالب نفسه (٢) ، فيمكن القول فى الرد عليه إن الرسول كان هو زعيم الدين الجديد الذى رأوا فيه تهديداً لمصالحهم وإساءة لآلهتهم وطعناً فى تقاليدهم ، ولذلك ركزوا الهجوم عليه . وهذا هو المشاهد عادة فى مثل تلك الأحوال ، وإلا فلم اغتيل تروتسكى وحسن البنا مثلا وليس أحدا من أتباعهما ؟ إن أعداء الدعوة الجديدة يعتقدون أنهم إذا ما تخلصوا من الرأس الكبير فيها تمّ لهم القضاء على الأتباع والدعوة كلها تلقائيا دون جهد يُذْكَر . ومع ذلك فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة واستقلوا عن زعيمهم وبدا أن من الممكن تحولهم إلى مصدر أصلى لنشر الدعوة هناك رأينا قريشا ترسل فى إثرهم ببعض رجالها لمفاوضة النجاشى أملاً فى أن يعيدهم إليها لتفتك بهم على النحو الذى تريد . وإذا كان جعفر قد هاجر مع

(١) ابن هشام / ١ / ٢٥٩ .

(2) La Biographie du Prophète , pp. 115 - 116 .

المهاجرين فهذا لا يعني بالضرورة عجز والده عن حمايته ، ومن ثم فلا موضع لتساؤل الأستاذ الدكتور عن السرّ فى تركه مكة ما دام هذا الوالد كان يستطيع حماية الرسول [١]، إذ من الممكن جدًا أن يكون جعفر قد أراد أن يشارك إخوانه المستضعفين مصيرهم تعبيرا عن حبه لهم ورفعاً لروحهم المعنوية[٢] . وقد يكون الرسول هو الذى طلب منه أن يرافقهم ليكون بينهم من يمثله من أهل بيته فى بلاط النجاشى ، الذى لجأوا إليه ليبسط عليهم حمايته . ولعلّ هذا هو السبب فى أن جعفرا ، رضى الله عنه ، كان آخر المسلمين رجوعاً من بلاد الأحباش [٣]، وكان هو الناطق بلسانهم أمام النجاشى وبطارقته فى ذلك اليوم المشهود الذى جمع فيه الملك الحبشى بينهم وبين رسولى قريش ليسمع ما يقوله كل من الطرفين فى حضور الآخر [٤].

---

(١) المرجع السابق / ١١٧ .

(٢) وذلك مثلما فعل عثمان بن مظعون ، الذى كان فى حماية الوليد بن المغيرة لكنه استنكف أن يعيش فى مكة آمنا مطمئنا فى الوقت الذى يسام فيه إخوانه المسلمون العذاب ، فذهب إلى الوليد وشكره وطلب منه أن يعفيه من هذه الحماية مؤثرا بذلك مشاركة إخوانه فى البلاء ، الذى ما لبث أن أتاه فى التوّ واللحظة . وعبثا حاول الوليد أن يدخله فى حمايته مرة أخرى ، إذ رأى أن الاستزادة من هذا البلاء أفضل من العيش فى أمان دون سائر إخوانه (انظر مثلا « مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم » لعروة بن الزبير / ١٠٩ ـ ١١٠) .

(٣) وقد قال المرحوم محمد عزة دروزة بمثل هذا من قبل (انظر كتابه «سيرة الرسول ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية » / عيسى البابى الحلبى / ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م / ١ / ٢٧٢) .

(٤) وللدكتور إبراهيم عوضين تعليل آخر لخروج جعفر مع المهاجرين إلى الحبشة ، وهو أنه خرج داعيةً لا فرارا من الأذى (انظر مقاله « سيرة ابن هشام وإنصاف الحقيقة» بمجلة « الهلال » / مايو ١٩٩٨م / ١٢٠ ـ ١٢١) .

إن الأستاذ الدكتور يؤكد أن بنى هاشم هم الذين دفعوا جعفراً دفعا إلى الحبشة بتعذيبهم إياه وأنهم هم الذين كانوا يمثلون الخطر الأكبر على النبى عليه السلام وعلى دينه (١) وليس أبا لهب وحده ، الذى يدّعى المؤلف أن ابن إسحاق ، ممالأةً منه للعباسيين ، قد أراد التضحية به دون سائر بنى هاشم وبنى المطلب بوصفه استثناءً شاذًا يؤكد القاعدة المتمثلة فى حبهم للرسول وحَدْبهم عليه وحمايتهم له ولدينه (٢).

لكن أكان القرآن سيسكت عن بنى هاشم فلا يذكرهم بسوء ولا يهددهم بجهنم كما فعل مع أبى لهب ؟ ثم ما الذى منع ابن إسحاق ، ما دام جريئا فى كذبه وتلاعبه بالتاريخ إلى هذه الدرجة ، أن يجعل أبا لهب أيضاً من حماة النبى عليه السلام بحيث تكون صورة بنى هاشم وبنى المطلب جميعاً دون أى استثناءٍ صورة بيضاء نقية تامة البياض والنقاء ؟

ويمضى د. مراد قائلا إن ابن إسحاق لم يذكر لأبى لهب من المواقف المعادية لابن أخيه ودينه ما يسوّغ نزول سورة « المسد » فيه (٣). والحق أن ابن إسحق قد أورد عدة مواقف لأبى لهب كلها تنضح بالعداوة والبغضاء والسفاهة ، فقد كان هو الوحيد من دون بنى هاشم الذى ردّ على الرسول ردًا وقحا يوم جَمَعَهُمْ ﷺ ليبلغهم دعوته عقب

(1) La Biographie du Prophète , p 119 .

(٢) المرجع السابق / ٢٨٨ .

(٣) السابق / ١٢٠ ـ ١٢١ .

نزول الوحي عليه أن ﴿ أَنْذِرْ عشيرتك الأقربين ﴾ ، إذ صاح فيه قائلا: « تبًا لك سائر هذا اليوم ! ألهذا جَمَعْتَنا ؟ » . كما أنه هو وزوجته كانا يُلْقِيان الشوك في طريقه عليه السلام ويشتمانه ، ودفعا ابنهما لتطليق بنته صلى الله عليه وسلم . وكذلك ذكر ابن إسحاق أن أبا لهب هو الوحيد من بني هاشم الذي انشق عنهم عندما حاصرتهم قريش في شِعْب أبي طالب . والدكتور مراد يهدف من وراء ذلك إلى القول بأنه لاَ بد أن يكون هناك سبب لنزول الوحي بهذه الآيات العنيفة في حق أبي لهب ، وهذا السبب في رأيه هو ما سبق أن ذكرناه من أنه هو الذي تولَّى كِبْر تخديد الأخدود لإحراق المسلمين أحياء . وقد مرّ تفنيد ذلك .

وكديدن د. مراد في تكذيب معظم وقائع السيرة النبوية نراه يرفض ما جاء عند ابن إسحاق عن هجرة المسلمين إلى الحبشة ومطاردة المشركين لهم والمواجهة التي تمت في بلاط النجاشي بين رسولي قريش والمهاجرين ودَوْر جعفر بن أبي طالب في ذلك وإسلام النجاشي بعد سماعه الآيات الأولى من سورة « مريم » . أما الصواب في رأيه فهو أن قريشا هي التي نفتْ هؤلاء المسلمين نفيا وأرسلت من يخفرهم إلى بلاد الحبشة بعد الاتفاق مع بعض السلطات المحلية هناك على وضعهم في معسكرات اعتقال وتسليط ألوان الإيذاء عليهم [١] . أما من أين أتى الأستاذ الدكتور بهذا وعلى أي أساس قاله فذلك لا يهمّ . المهم هو التكذيب والسلام ، ولا عليه بعد ذلك أن القرآن لم يذكر شيئا من هذا

(١) السابق / ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ١٣٩ ـ ١٤٤ .

الذى يقوله ولا أيا من كتب التاريخ فى أى عصر من العصور . وإننا لنتساءل : إذا كان ابن إسحاق قد أراد ممالأة العباسيين (مع أن جعفرا كان من أبناء أبى طالب لا من أبناء العباس ، وقد كان بين العباسيين والطالبيين ما طرق الحداد بعد توليهم السلطة إثر القضاء على دولة بنى أمية كما بيّنا قبلا) ، فكيف ذكر عروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى وابن حزم ، الذين كانوا يعيشون تحت سلطان الحكم الأموى ، هذا الذى قاله ابن إسحاق ولم يقولوا بما يدّعى الأستاذ الدكتور أنه هو الذى وقع ؟ أو كيف سكت المسلمون جميعا على أكاذيب ابن إسحاق ونفاقه فلم يحاول أحد منهم طوال تلك القرون المتطاولة أن يهتك زيفه وأخاديعه ؟ أو كيف تقبل المستشرقون ما قاله ابن إسحاق ، وكثير منهم، كما نعلم ، يتربّصون بتاريخنا ورجالنا ويعملون بكل وسيلة على التشكيك فى هذا التاريخ وأبطاله ؟ ثم لماذا يُثنى المسلمون على النجاشى ويمدحونه وينسبون إليه كل هذا الفضل إذا كان بذلك السوء الذى يزعمه الأستاذ الدكتور ؟ أيُعقَل أنهم ، بدلا من أن يفضحوه أو يفضحوا السلطات المحلية التى تُمثّله فى المكان الذى وُضِع فيه المسلمون فى بلاده رهن الاعتقال وتعرضوا لصنوف الأذى والعدوان ، يرسمون له صورة كريمة عظيمة تضعه فى أعلى علّيين ؟ إن هذا والله لهو الخبل بعينه ، وحاشا للمسلمين الأوائل أن يكونوا بهذه البلاهة ! ثم ماذا نقول فى أن النجاشى قد ناب عن الرسول عليه السلام فى عقد قرانه على رملة بنت أبى سفيان ؟ ولم حرص ابن إسحاق ، المتّهم بمنافقة بنى العباس وتشويه

التاريخ من أجل سواد عيونهم ، على أن يذكر ، على الأقل فى هذا السياق ، زواج النبى صلى الله عليه وسلم من بنت أبى سفيان زعيم الأمويين ، الذين كان بينهم وبين العباسيين عداوات وثارات وحروب رهيبة انتهت بتقويض دولتهم وإقامة دولة بنى العباس على أنقاضها ، وبخاصة إذا تذكّرنا أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يتزوج من أية هاشمية لا من بيت العباس ولا من بيت أبى طالب ؟ ثم كيف خالف ابن إسحاق منهجه المزعوم الذى أسنده إليه د. مراد فى النيل من المكيين بكلّ سبيل وتشويه صورتهم فلم يذكر كما ادّعى الأستاذ الدكتور ، أنهم هم الذين نَفَوُا المسلمين من وطنهم ودفعوا الأموال للأحباش لكى يحبسوهم فى معسكرات اعتقالٍ ويعذّبوهم ؟ ثم إذا كان القرشيون بهذه القوة وهذا التنظيم ويستطيعون السيطرة على العشرات من المهاجرين طوال الطريق البرّىّ من مكة إلى الميناء الذى سيغادرون فيه الجزيرة العربية وكذلك طوال الطريق البحرى من ذلك الميناء إلى ميناء الوصول فى أرض النجاشى ، فكيف لم يقضوا عليهم فى مكة أو يغرقوهم فى البحر الأحمر ويريحوا ويستريحوا بدل كل هذا العناء وتضييع الوقت والأموال ، وهم والحمد لله لا ينقصهم الضمير القاسى والقلب المتحجر الذى لا يَرِقّ ولا يبالى ؟ ألم يَخُدُّوا الأخدود من قبلُ للمسلمين ويحرقوهم أحياء دون أن تهتز لهم نفس أو يطرف لهم جفن ؟ ثم لماذا اكتفَوْا بنفى بعض المسلمين فقط وتركوا الباقين ؟

ونأتى إلى جعفر وقول الدكتور الفاضل إن ابن إسحاق قد عمل على تضخيم صورته وتفخيمها بجعله السبب فى إسلام النجاشى[1]، الذى لا يصدق الأستاذ الكاتب أنه قابل جعفرا أو أيا من المهاجرين ، إذ وُضِعوا منذ وطئت أقدامهم أرض الحبشة فى معسكرات اعتقال أعدتها إحدى السلطات المحلية هناك كما يقول . والواقع أن ابن إسحـاق لـم يحصر فى جعفر وحده الفضل فى الموقف الذى وقفه أمام النجاشى ولا فى الشرح الذى قام به لعقيدة الإسلام ومبادئه بل عمَّ به المسلمين المهاجرين جميعاً ، إذ ذكر أنهم ، حينما بعث إليهم النجاشى للمثول فى حضرته ومواجهة ما يقوله رسولا قريش فى حقهم ، قد « اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول

(١) يقوم تشكيك الأستاذ الدكتور هنا على أن ابن إسحاق قد جعل جعفرا هو المتحدث بلسان المسلمين أمام النجاشى لأنه من بنى هاشم ولم يجعله عثمان بن عفان لكونه من بنى أمية (ص ١٤٣) ، وكأنه كان على ابن إسحاق أن يزيف التاريخ حتى لا يشكّ فيه الأستاذ المؤلف ، مع أنه لم يُعْرَف عن عثمان براعة فى مواجهة الجمهور. كما أن شخصية جفر البطولية ومقدرته على القيادة اللتين تبدّتا فى غزوة تبوك وأكسبته مجد الشهادة مما يقوّى ما جاء فى سيرة ابن إسحاق . ولو كان ابن إسحاق يريد الغض من مكانة عثمان بسبب أمويته ، فكيف لم يتجاهل أنه كان من السابقين إلى الإسلام فى وقت كانت فيه ظروف النبى ودينه فى غاية الصعوبة والحرج ؟ ولماذا ذكر زواج عثمان من اثنتين من بنات الرسول رضى الله عنهما ؟ ولم أبرز أيضاً إنفاقه السخىّ الهائل فى تجهيز جيش العسرة ؟ وقد تكلمنا عن هذا بشىء من التفصيل فى غير هذا الموضع من كتابنا .

والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً فى ذلك ما هو كائن » . وكل ما انفرد به جعفر هو أنه قد تحدث باسمهم فذكر ما اتفق الجميع عليه لا ما طرأ على خاطره وحده. وقد تكرر الأمر نفسه فى الاجتماع التالى الذى تم فى الغد . وأيا ما يكن الحال فإن ابن إسحاق لم يذكر أن جعفرا قد دعا النجاشى إلى الإسلام ولا فكّر فى ذلك ولا خطر له ببال ، وإنما الذى حدث هو أن ما اتفق المسلمون هناك على أن يبلغه إياه جعفر قد وقع من نفس ذلك الملك موقعا حسنا فآمن به وبالنبى الذى أُنْزِل عليه (١) . فأين محاولة ابن إسحاق التضخيم من شأن جعفر هنا على حساب سائر المهاجرين ؟ على أن هناك دوراً آخر مهمّا قام به أحد المسلمين ، وهو السباحة فى النيل للاقتراب من المعسكرين المتصارعين فى الحبشة على الحكم آنئذ ، وهما النجاشى والثائرون عليه ، إذ كلّف المسلمون الزبير بن العوام ، وكان من أصغرهم سنّا ، أن يربط قربة فى صدره ويعوم بها إلى الشط الثانى حيث تدور المعارك حتى يعرف من الفائز منهما ، وذلك تحسُّبا لما يجدّ من أمور قد يكون أثرها عليهم بالغ السوء فى حالة انتصار معسكر الثائرين (٢) . ولا شكّ أنها مخاطرة عظيمة تلك التى أقدم عليها الزبير ، الذى لم يكن يعرف السباحة فيما هو واضح من القصة والذى كان يمكن أن يثير الشبهات

---

(١) انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٢٩٠ ـ ٢٩١ ، ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق / ١ / ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

عند المتحاربين ويتعرض من ثم للهلاك . ومع هذا فقد جعل ابن إسحاق من الزبير بطلها ولم يجعله جعفرا . فما القول فى هذا ؟ وماذا نقول كذلك فى كتب الأحاديث النبوية ، وقد ذكرت هى أيضاً « هجرة » المسلمين لا «نفيهم» إلى الحبشة ، كما ذكرت إسلام النجاشى وصلاة الرسول عليه؟ [١] أما استغرب د. مراد أن يذكر جعفر للنجاشى شعيرة الصيام ضمن ما جاءهم به الرسول رغم أن الصيام لم يكن قد فُرِض بعد ، فمن الممكن أن تكون هذه غلطة فى الرواية لا تقدح فى صحة وقائع الهجرة ، أو قد يكون الرسول قد لفت المسلمين فى مكة إلى أهمية الصيام بوجه عام دون أن يكون هناك وحى بفرضه عليهم . ومن المعروف أن الرسول والمسلمين كانوا يصومون عاشوراء منذ المرحلة المكية ، بل كان القرشيون يصومونه هم أيضاً فى الجاهلية[٢] .

وأخيرا لعله من المناسب أن نورد هنا ما قاله الخبيث مرجليوث فى نهاية روايته لهذه الهجرة (بما فيها مثول جعفر بن أبى طالب بين يدى النجاشى فى حضور رسولى قريش وقراءته صدر سورة مريم ، وإن زعم أن النبى كان قد أعد هذه الآيات من قَبْلُ إعدادا لمثل هذا الغرض) ، إذ كتب مؤكدا أنه « مهما يكن الأمر فمن الحق الذى لا مِرْية فيه أن

---

(١) انظر مثلا « صحيح البخارى » / عيسى البابى الحلبى / ٢ / ٢٢٥ _ ٢٢٦ ، و ٣ / ٥٣ _ ٥٤ .

(٢) المرجع السابق / ١ / ٣٢٣ ، و ٢ / ٣١٧ .

النجاشى قد اتخذ جانب محمد ضد قريش وظل صديقا مخلصا له حتى وفاته ، وأنه عندما تكللت جهود محمد بالنجاح (يقصد نجاحه فى إقامة دولة للإسلام بالمدينة) قام بإعادة المهاجرين إليه ودفع من جيبه مهر إحدى زوجاته المتعددات (يشير إلى أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان رضى الله عنها) »[1] . وقد استشهدت بمرجليوث بالذات لما هو مشهور عنه من خبث طويته وكيده السافر الوقح للإسلام وبغضه الملتهب للنبى عليه الصلاة والسلام .

والدكتور مراد ، كما أوضحنا آنفا ، يتهم ابن إسحاق بالتعصب للمدينة وأهلها مما قد رددنا عليه وبينا افتقاره إلى أساس يستند إليه ، ومن هنا نراه يدعى أنه كانت هناك هجرات أخرى إلى غير يثرب من مناطق الجزيرة العربية وأن ابن إسحاق قد عتم عليها حتى لا يكون هناك

(1) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, 3rd edition, G. P. Putnam's Sons, New York & London, 1905, pp. 158 - 161 . وانظر أيضا موير (William Muir) ، الذى يورد قصة المهاجرين إلى الحبشة، وإن حاول أن يشكك فى بعض التفصيلات الثانوية (The Life of Muhammad from the Original Sources, pp. 19 - 93 , 383) وكذلك درمنجم (Emile Dermenghem) فى " La Vie de Mahomet " (Librairie Plon, Paris, 1929, pp. 114 - 117) وجورجيو (Virgil Gheorghiu) فى كتابه الذى ترجمته ليفيا لامور إلى الفرنسية " La Vie de Mahomet " (Librairie Plon, 1970, pp. 120 - 125) .

مزاحم لأهل المدينة فى الفوز بشرف نصرة الإسلام والتلقّب باسم « الأنصار » (١).

وهذه أيضا من الخيالات الغريبة التى لا صلة بينها وبين البحث العلمى ، وإلا فلماذا سكت هؤلاء المهاجرون فلم ينبسوا ببنت شَفَة عن هجرتهم تلك ، وهى فخر ووسام على صدورهم ؟ ولماذا سكت كذلك سكان هذه المناطق فلم يذكروا أنهم آوَوْا ونصروا من التجأ إليهم من مسلمى مكة المضطَهَدين ؟ وأين أشعارهم فى هذا ؟ أم تراهم لم يكونوا يعرفون الشعر ولم يكن بينهم شعراء كما كان فى يثرب شعراء يفتخرون بنصرتهم للإسلام وهجرة الرسول إليهم ؟ أم سيقول الأستاذ الدكتور إن ابن إسحاق قد أحرق هذه الأشعار حتى لا تفضح كذبه وعبثه بالسيرة النبوية ؟ الحقَّ أنْ ليس لهذا كله من معنى إلا أن التاريخ النبوى كله كذب فى كذب ، وحاشا لله أن يكون الأمر كذلك ، وإلا حقت لعنة الكذب، بل الكذب والغباء ، على أمة محمد فى جميع العصور ، والعياذ بالله ! ثم إن كلمة «الأنصار» بالألف واللام (وهى المقابلة لكلمة «المهاجرين») لم تظهر إلا فى الوحى المدنى (٢)، ومن الواضح قطعا أن المقصود بها سكان المدينة . ومثلها فى ذلك عبارة « الذين آوَوْا ونصروا » ، التى تكررت مرتين فى القرآن (٣). ولم يمنّ الله على

(1) La Biographie du Prophète , p. 147 .

(٢) فى الآيتين ١٠٠ و ١١٧ من سورة « التوبة » .

(٣) فى الآيتين ٧٢ و ٧٤ من سورة « الأنفال » .

المسلمين بأنه آواهم وأيدهم بنصره بعد أن كانوا قليلين مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس (كما جاء فى سورة « الأنفال ») إلا عند الهجرة إلى المدينة المنورة . كذلك فالسنة النبوية ، حينما تتحدث عن أية هجرة إلى غير الحبشة ، إنما تقصد الهجرة إلى المدينة ، وهذا معروف لا سبيل إلى الجدال فيه .

ونمضى مع تشكيكات الأستاذ الدكتور التى لا تكاد تنتهى فنجده يشكك فى حقائق الحصار الذى ضربته قريش حول بنى هاشم لحيلولتهم بينها وبين إيذاء محمد ، قائلاً إن الحصار إنما كان ضدّ المسلمين وحدهم دون غير المسلمين من بنى هاشم ، الذين اشتركوا كلهم (لا أبو لهب فقط) مع سائر قريش فى تلك المقاطعة الموجّهة ضد مسلمى مكة جميعا كما أشرنا . أما لماذا قال ابن إسحاق إن سائر بنى هاشم ، رغم عدم إسلامهم ، قد صلُوا مع الرسول ومن أسلم منهم نار الحصار ، فذلك راجع فى رأى الأستاذ الباحث إلى أن ابن إسحاق قد أراد التقرب إلى بنى العباس بالإعلاء من شأن أسلافهم بنى هاشم . وهو يتساءل أيضاً تساؤل المستغرب : ألم يستطع أحد ممن يهمهم أمر المحاصَرين أن يهرّب إليهم طعاماً ؟ (١) وقد فات الأستاذَ الباحثَ أن نفرا من قريش ممن كان يهمهم أمر المحاصَرين من بنى هاشم ويتعاطفون معهم كانوا يكسرون الحصار فيأتونهم بالطعام سرًا. وقد انكشف أمر بعضهم كما

(1) La Biographie du Prophète, pp. 146 - 149 .

حدث لحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، الذى حمل إليهم هو ورجل آخر قمحاً فلقيه أبو جهل فى الطريق إلي الشّعْب الذى كانت بنو هاشم محصورة فيه فاشتبك معه ، وتدخل قريب لحكيم وضرب أبا جهل بلَحْى بعير [(١)] . وممن كانوا يكسرون الحصار أيضا هاشم بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ، الذى كان يوقِر البعير بالطعام أو الثياب ثم يأتى به ليلاً إلى فم الشّعْب فيضربه على جنبه ويطلقه فيدخل على المحاصرين بما عليه من أحمال . ثم لحق به فى ذلك التصرف النبيل زهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى والمطعم بن عدى والبخترى بن هاشم وزمعة بن الأسود ابن المطلب بن أسد ، وفكّر الجميع فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش فى مقاطعة أقاربهم من بنى هاشم وبنى المطلب [(٢)] . وواضح أن عدد الذين عملوا علي كسر المقاطعة خمسة وليسوا واحداً فقط كما وهم د. مراد ، الذى لم يذكر من هؤلاء إلا هشام بن عمرو المارّ ذكره [(٣)] . ثم إن هؤلاء الخمسة ، كما هو مفهوم ، ليسوا من بنى هاشم. ولو كان ابن إسحاق يلوى عنق التاريخ كما يشنّع عليه الأستاذ الدكتور فلِمَ أسند فضل كسر المقاطعة ونَقْض صحيفتها إلى نفر من غيرهم جاعلاً لهم بذلك يداً على بنى هاشم وبنى المطلب ؟ لماذا لم يقل مثلا إن نفرا من بنى هاشم أنفسهم قد ثاروا على قريش وتحدَّوْهم وحاربوهم وأرغموا أنوفهم فى التراب ووضعوا بهذا حدًّا لتلك المقاطعة

---

(١) سيرة ابن هشام / ٢ / ٤ ـ ٥ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ١٧ ـ ١٨ .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 146 - 149 .

اللاإنسانية ؟ وغنى عن القول أنه إذا كان ابن إسحاق لم يذكر إلا خمسة فقط ممن تحدَّوا المقاطعة فإن هذا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن هناك غير هؤلاء الخمسة ، إذ إنه لم يكن يستقصى ، بل كل ما هنالك أنه ذكر ما بلغه . وقد تكون أسماء أخرى قد بلغته ولكنه نسيها ، أو يكون أراد التمثيل فقط لما حدث . كذلك لو كان بنو هاشم جميعاً قد اشتركوا فى ضرب الحصار على المسلمين فكيف لم ينزل وحى بذلك كما نزلت سورة « المسد » فى أبى لهب وحده دونهم؟ أم سيقال إن ابن إسحاق قد حذف الآيات التى شنّعت عليهم ؟ مسكين ابن إسحاق هذا ! ثم ما القول فى أن عروة بن الزبير فى « مغازيه » يذكر المقاطعة على نفس النحو الذى ذكرها به ابن إسحاق؟ [١] وهو ما يصدق أيضا على ابن حزم [٢].

ومن تشكيكات د. مراد في كلام ابن إسحاق لمجرد التشكيك تكذيبه إياه فيما قاله عن صلاة الرسول والمسلمين في المسجد الحرام ، إذ يدّعى أن قريشا قد منعتهم من دخوله ، وإلا فلو كانت تسمح لهم بذلك وتتركهم يختلطون أثناء موسم الحجّ بالحجيج القادم من أرجاء الجزيرة بحيث يسمعون منهم آيات القرآن ويرونهم وهم يصلّون ، فكيف كانت ستعلّل لهؤلاء الحجيج الضغط الذى كانت تمارسه عليهم ؟ [٣]

(١) انظر كتابه « مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم » / ١١٤ ـ ١١٦ .

(٢) انظر « جوامع السيرة النبوية » / ١ / ٩٣ ـ ٩٤ .

(3) La Biographie du Prophète, p .152, 373 - 374 .

وهنا أسارع فأذكِّر الأستاذ الباحث بأنه دائماً ما يتهم ابن إسحاق بالرغبة في تشويه قريش لصالح أهل المدينة ، فما الذى جعل ابن إسحاق هنا إذن يخرج عن خطته ويخالف ما درج عليه طوال السيرة كلها ؟ ثم إنى أحيله إلى القرآن الكريم ، فهل يستطيع أن يستخرج لى منه نصّا واحدا يشير إلى قيام قريش بصدّ المسلمين عن المسجد الحرام فى غير الوحى المدنى ، الذى قد يضاف إليه على أقصى تقديرٍ الوحى المكىّ السابق مباشرة على الهجرة أو الذى نزل والنبى فى الطريق إلى المدينة ؟ ولتجنيبه مشقة البحث عن هذه الآيات هأنذا أوردها له بنفسى ، وهى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآن قوم أن صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾[1] ، ﴿ هم الذين كفروا وصدُّوكم عن المسجد الحرام ﴾ [2] ، ﴿ وما لهم ألاّ يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ؟ ﴾[3] ، ﴿ إن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرامِ الذى جعلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِ ، ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نُذِقْه من عذاب السعير ﴾ [4] ، ﴿ وصدٌّ عن سبيل وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله ﴾ [5] . أفلو كان المشركون

(١) المائدة / ٢ . والإشارة فى الآية إلى منع المشركين للمسلمين من تأدية العمرة فى غزوة الحديبية .

(٢) الفتح / ٢٥ . والإشارة هنا أيضاً إلى ما وقع فى الحديبية .

(٣) الأنفال / ٣٤ .

(٤) الحج / ٦٥ .

(٥) البقرة / ٢١٧ .

يمنعون الرسول والمسلمين من دخول المسجد الحرام طوال المرحلة المكية أكان القرآن سيصمت فلا يشير إلى ذلك فى تلك المرحلة ؟ ثم ما رأى الأستاذ الدكتور فى أن القرآن الكريم يذكر بصريح القول أن الإسراء بالرسول[١] تمّ من المسجد الحرام بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان وقتها فيه ، وهو ما لا يمكن أن يكون له من معنى إلا أنه ﷺ لم يكن ممنوعاً من دخوله ؟ قال تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ﴾[٢]. أم تراه سيكذّب القرآن ؟ ولا إخاله يفعل ، فهو (فيما أعرف عنه) رجل مسلم محبّ لدينه[٣]، وإن كنت أرى أنه أسرف على نفسه وعلى التاريخ وعلى ابن إسحاق . أم إن له تأويلاً للآية يخرجها عن معناها الواضح المفهوم ؟

ويمضى د. مراد فيقول ، عما ورد فى سيرة ابن إسحاق عن عزم أبى بكر ، بعد اشتداد الأذى عليه ، على اللحاق بإخوانه المهاجرين إلى الحبشة ، إن هذا الكلام غير صحيح اخترعه ابن إسحاق للبرهنة على أن أبا بكر كان فرّارا لا يفكّر إلا فى نفسه وعلى استعداد لأن يترك الرسول وحده فى الميدان مُسْتَهْدَفًا لأذى الكفار وإساءاتهم ، وإن غرض ابن إسحاق من هذا هو النيل من أبى بكر لحساب العباسيين لأنه أخذ الخلافة من علي . ويدخل فى هذا إسناد البكاء إليه عندما تحرش الكفار

(١) وهو من وقائع السيرة فى المرحلة المكية كما هو معلوم للكافة .

(٢) الإسراء / ١ .

(٣) علاوة على أن أحداً من غير المسلمين لم يشكك فى صحة النص القرآنى .

بالرسول فى الكعبة وحاولوا خنقه ، إذ البكاء (كما يرى) هو علامة على الضعف وعدم التماسك [١]. ومن الطريف أن الأستاذ الدكتور يقرّ عقب ذلك بأن ابن إسحاق لم يبخس أبا بكر قدره بل ذكر كل ما كان يتحلى به من فضائل ومزايا ، وهو ما تناولناه فى موضع آخر من هذه الدراسة تناولاً مفصلا . وقد كان يكفى هذا من ابن إسحاق ، لو أردنا الإنصاف ، كى نعرف أن مثل ذلك العالم لا يمكن أن يكون هدفه الإساءة إلى الصديق رضى الله عنه وأنه إذا كان قد حكى عنه عزمه على الهجرة وبكاءه شفقةً على الرسول صلى الله عليه وسلم فلأن ذلك هو ما بلغه فعلا فأداه كما هو ولم يخترعه اختراعا كما ادّعى عليه الأستاذ المؤلف .

ثم ماذا فى أن يفكّر أبو بكر فى الهجرة ؟ لقد بذل ، رضى الله عنه، كل ما يستطيع فى سبيل الله لم يألُ فى ذلك جهدا ، لكنه رأى أن الأمور ، رغم كل شىء ، تسوء أكثر وأكثر ، وأن المشركين يسدّون عليه وعلى أمثاله من المسلمين كل الأبواب والنوافذ ، وأن من الأفضل له من ثَمّ أن يبحث عن مكان يأمن فيه على نفسه ويستطيع أن يجهر بدينه وأن يعبد الله على النحو الذى يحبّ . وعلى كل حال فإن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو الذى أذن له [٢]. فماذا فى هذا ، وقد كان بعض المسلمين آنئذ، من شدة ما يلقَوْن من بُرَحاء العذاب على أيدى

(1) La Biographie du Prophète, p 156 .

(٢) سيرة ابن هشام / ٢ / ١٦ .

الوثنيين ، يعلنون الكفر بلسانهم (مع البقاء على الإيمان فى أعماق قلوبهم) فلم ينكر عليهم الرسول بل نزل القرآن الكريم يطمئنهم وينفى عنهم الكفر ؟ (١) إن صنيع أبى بكر لا يُعَدّ شيئا البتَّة بالقياس إلى ذلك. ولماذا ينسى الأستاذ المؤلف أن جعفرا قد هاجر مِنْ قَبْلُ إلى الحبشة وترك الرسول بمكة ، وجعفر ليس مجرد مسلم عادى بل ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ وحمزة ، الذى يقارن د. مراد بين موقفه حين اشتبك مع أبى جهل وضربه على رأسه بالقوس وبين بكاء أبى بكر حينما رأى الكفار يعتدون على الرسول ويحاولون خنقه ، ألم يهاجر إلى المدينة تاركا الرسول بمكة ؟ أما بكاء أبى بكر فليس فيه شىء يعاب على الصدّيق ، رضى الله عنه وأرضاه ، بل هو مفخرة له ، إذ يدل على مدى حبه للرسول عليه السلام وخوفه على حياته وتألمه للفظاظة والقسوة التى عامله الكفار بها وحاول هو رضى الله عنه أن يكفّهم عنها فلم يستطع لكثرتهم ولما بيّتوه من إصرار متوحش على التنكيل بالرسول تنكيلا يكون عظة لغيره فلا يفكر أحد فى اتباع دينه بعدما هاجر معظم المسلمين إلى بلاد النجاشى البعيدة . ولقد ذكر ابن إسحاق نفسه أن الرسول بكى ذات مرة أمام أبى طالب عندما ظن أن من الممكن أن يتأثر هذا العمّ بشكاوى قريش المتكررة وينصرف عن نصرته . ومثل هذه الدموع الطاهرة ليست من الضعف فى كثير أو قليل ، بل هى دليل

---

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٧٩ ، والآيتان ١٠٥ و ١٠٦ من سورة « النحل » .

الرحمة ووفرة الإنسانية . على أن المقارنة مع حمزة لا تصحّ إلا إذا كانت الظروف والسياق هما هما . ولقد رأينا حمزة يهاجر قبل الرسول على حين يبقى أبو بكر إلى جانبه لأنه صلى الله عليه وسلم طلب منه ذلك، فما العمل؟ كما كان الرسول في بدر يستغيث ربّه في العريش بينما القتال مستحرٌ بين المسلمين (وعلى رأسهم حمزة وعلى) وبين الكفار ، فهل يصح أن يقال إن عليا وحمزة كانا أشجع منه صلى الله عليه وسلم؟ أم هل يمكن العيب عليه لأنه اختبأ مع أبى بكر فى الغار ولم يبرز لمطارديه من مشركى قريش ويشتبك معهم فى حرب ، فإما خرج منها غالباً وإما مات معذورا ؟ لا يا دكتور مراد ، لا يصلح أن تُتَناول الأمور بهذه الطريقة !

ومن الصدّيق إلى الفاروق حيث نجد تشكيكات الدكتور مراد لا تزال ماضية تكتسح فى طريقها كل شيء ! إنه يشكك فى كثرة التفصيلات الخاصة بقصة إسلام عمر رضى الله عنه ، مع أن تشكيكه فى صحة قصص أخرى قائم على أنها تخلو من التفصيلات ، وهو ما يبرهن على أنه دخل موضوعه وهو عاقدٌ العزم على بذر بذور الريبة والتكذيب . ومن بين ما يشكك فيه أيضاً أن تكون بضع آيات من القرآن قادرة (كما جاء فى القصة) على تحويل عمر إلى الإسلام [1]، مع أن لهذا نظائر كثيرة فى حياة كل منا ، وهو ما لا يمكن المجادلة فيه ، وبخاصة إذا

---

(1) La Biographie du Prophète, pp. 162 - 163 .

كانت هناك مقدمات وبشائر تدل على قرب مثل ذلك التغيير الذى حدث فى حياة عمر الروحية ، فقد ذكرت إحدى نساء قريش ممن هاجروا إلى الحبشة أن عمر قابلهم فى الطريق ، وكان يؤذيهم قبل ذلك لفتنتهم عن الإسلام ، فسألها عن وجهتها فأخبرته أنهم منطلقون إلى الحبشة بسبب ما يلقَّوْنه على يديه هو وأمثاله من القهر والإيذاء ، فوجدت منه رقةً على غير العادة وشامَتْ فى ملامحه وصوته حزنا . فلما جاء زوجها ، وكان قد ذهب فى حاجة لهم ، أخبرته بما حدث وذكرت ما أحسَّته فى كلام عمر من رقة وأسًى، فقال لها مستنكرا: « أَطَمِعْتِ فى إسلامه ؟ » ، فأجابته أنْ « نعم » ، لكنه استبعد ذلك أشد الاستبعاد قائلا فى يأس إن مثل عمر لن يسلم إلا إذا أمكن أن يُسْلِم حمار أبيه الخطاب أوّلا . ولا شكَّ أن إحساس المرأة الفطرى عند تلك السيدة قد ألهمها الصواب الذى فات زوجها. وعلى هذا فليس بمستغرب أن ينقلب عمر من النقيض إلى النقيض بعد أن رأى الدم يسيل من وجه أخته من جرّاء ضربه إياها وبعد أن قرأ افتتاحية سورة « طه » أو ، على الرواية الأخرى ، بعد أن سمع النبى وهو واقف أمام الكعبة فى ظلام الليل وهدأته يتلو بصوته الرقيق النبيل آيات القرآن الكريم ، وكان قد جاء ليخيفه فيما يظن فكانت النتيجة أن داخله الحياء والعطف والإسلام[1] . إنها المقدمات تسلم إلى نتائجها ! لكن الأستاذ الدكتور يتناسى هذا كله

(١) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٩٤ ـ ٢٩٨ .

ويغمض عينيه كيلا يراه مع قربه الشديد منه حتى إنه لو مدّ يده للمسه لمسا . لكن ماذا أقول ؟ لقد كانت الوثنية فى قلب عمر فى نزعها الأخير ترسل أنفاس الموت ، لكن « حلاوة الروح » كانت تدفعها إلى المغالبة !

أما اعتقاد المؤلف ، أو بالأحرى ادعاؤه ، بأن الإنسان إما أن يُسْلِم لأول سماعه القرآن وإما ألا يسلم أبدا مهما تكرر سماعه له بعد ذلك[1]، وما دام عمر قد سبق له أن سمع القرآن مرارا ولم يسلم فليس من المعقول أن يكون إسلامه هذه المرة لمجرد سماعه آيات منه ، فجوابنا على ذلك هو أن المسألة ليست بالبساطة التى يتخيلها الأستاذ الدكتور ، فكم من آية قرآنية يمرّ بها الإنسان كثيرا مرور الكرام دون أن يلفت نظره فيها شيء ، ثم إذا هى نفسها فى ظروف أخرى تفعل فى نفسه الأفاعيل، وقد تزلزل كيانه ! وما أكثر الكلمات التى تقال لنا فنضحك لها ملء أشداقنا ، ولكنها فى سياق آخر تثير غضبنا وتفسد ما بيننا وبين قائلها ! وقس على ذلك كثيرا من أمور الحياة . وثمة سؤال أحب أن يجيب عليه الأستاذ الكريم ، وهو : إذا لم يكن عمر قد أسلم عند سماعه آيات القرآن الكريم ، ففي أي ظروف أخرى حدث إسلامه يا ترى؟ وهل هناك ما هو أفعل من القرآن بالنفس وأقدر على إثارة المشاعر النبيلة المطمورة فى أعماق الإنسان فى مثل تلك الظروف ؟

والدكتور المؤلِّف يرفض ما تقوله السيرة من أن عمر ، قبل إسلامه ،

---

(1) La Biographie du Prophète, p . 163 .

كان يعذّب المسلمين ، ويرى أن من بين الدوافع إلى اتهامه الرغبةَ فى الإساءة إليه لتوليه الخلافة على حساب بنى هاشم وفتحه بلاد فارس ، التى ينتمى إليها أسلاف ابن إسحاق[1] . لكن معنى هذا الكلام هو ، بكل بساطة ، أن ابن إسحاق يكره الإسلام أو ، على أقل تقدير ، فى إسلامه زَغَل ، وهى تهمة شديدة الخطورة وتتسم بالافتراء والتهوّر . فهل فى حياة ابن إسحاق أو شخصيته ما يساعد على رميه بهذه التهمة أو تصديقها ممن يرميه بها ؟ إن الرجل كان خادماً للسنّة النبوية هو وأخواه وأبوه من قبل، وصفحة حياته مفتوحة لكل من ينظر ويقرأ ، وليس فيها بحمد الله ما يمكن أن يُؤْخَذ عليه من هذه الناحية . وزيادة على هذا فإنه قد وفّى عُمَرَ حقّه فذكر ما قاله النبى حين دعا الله أن يؤيد الإسلام بأحد العُمَرين : عمرو بن هشام[2] أو عمر بن الخطاب ، فكانت الدعوة من نصيب عمر وأكرمه الله بالإسلام وقوّاه به[3]. كما أبرز ابن إسحاق كيف كان إسلام عمر فتحا ، إذ استطاع كثير من المسلمين أن يعلنوا إسلامهم وأن يجاهروا بشعائرهم ، وذلك غير موافقة الوحى له فى بعض الأمور ... إلخ مما فصّلنا فيه القول فى موضع آخر من هذا البحث . بل إنه فى مسألة ترشيحه أبا بكر لخلافة الرسول لم تبدر من ابن إسحاق أية كلمة يمكن أن توحى بكراهيته لذلك . ولهذا

---

(١) المرجع السابق / ١٦٤ .

(٢) هو أبو جهل .

(٣) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٩٦ ـ ٢٩٩ .

قلت قبلا إن شيعية ابن إسحاق المدّعاة عليه لا وجود لها فى كتابه الذى بين أيدينا .

ثم ماذا فى أن عمر كان يعذّب المسلمين قبل أن يدخل الإسلام ويصبح واحدا منهم ؟ إن كثيرا من الصحابة كانوا مثله فى تعذيب من سبقوهم إلى الإيمان برسالة محمد . والإسلام ، على كل حال ، يَجُبّ ما قبله . والمؤلف يؤكد دائما أن التعذيب كان شاملاً وعنيفا ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب قد اشتركوا فيه وكانوا شديدى القسوة فى ذلك ، فما الذى جعله يغضب لعمر هكذا ؟ أهو حبّ المخالفة لكل ما يقوله ابن إسحاق والسلام ، فإذا قال : « الشرق » قال هو : « الغرب » ، وإذا قال : « الغرب » قال هو : « الشرق » ؟ أم ماذا ؟ ومثل ذلك يقال عن إشارة الرواية الثانية الخاصة بإسلام عمر إلى أنه كان يشرب الخمر فى الجاهلية ، فالأستاذ الدكتور يرى أن ابن إسحاق إنما أراد بهذا أيضاً الإساءة إلى الفاروق . وماذا بالله فى أن الفاروق كان يشرب الخمر فى الجاهلية ؟ إن الخمر لم تحرّم إلا بعد مجىء الإسلام بزمن طويل ، وكان حمزة (الهاشمى) يشربها فى الإسلام هو والأغلبية الساحقة من الصحابة . وليس فى هذا أدنى شذوذ عن تقاليد البيئة التى نشأوا فيها ، فقد كان العرب يفتخرون بشربها ، وشعر حسّان مثلا قبل الإسلام مملوء بهذا . وهذه هى الجاهلية ، وإلا فما الفرق بينها وبين الإسلام ؟ وهَبْ أن ابن إسحاق قد كذب على الفاروق والصدّيق وسائر الصحابة والرسول وأشاع الاضطراب فى وقائع التاريخ النبوى واخترع روايات من عنده

ونسبها إلى زيد وعبيد من الناس ، فهل كان يمارس الإرهاب على هؤلاء الناس بحيث لم يستطيعوا أن يفتحوا أفواههم ويكذّبوه فيما رواه عنهم زورا وبهتانا ؟ ألا يرى الأستاذ الدكتور النتائج العجيبة التى تؤدى إليها نظريته ؟ إنه ليكفى أن نقرأ عند ابن إسحاق أن عُمَر (غير الهاشمى) قد أسلم ، بينما لم يسلم أبو طالب وأبو لهب (الهاشميان) ، وأنه أيضاً أسلم قبل أن يسلم العباس عم الرسول[1] وأبو سفيان بن الحارث ابن عم الرسول (الهاشميان أيضاً) كى ندرك أن ابن إسحاق لا يعرف ذلك الهوى الذى يدّعى الأستاذ المؤلف أنه هو الذى كان يحركه فى كتابة السيرة . لكن هذا للأسف لا يضع نهاية للمسألة ، فالأستاذ الدكتور يقول إن ابن إسحاق ، بذكره فضائل عمر ، إنما يهدف إلى أن يبدو موضوعياً[2] . ومعنى هذا أنه لا فائدة من كل ما قلناه فى الردّ عليه ، ولكن ما هكذا تورَد يا سعْدُ الإبل !

ويعلّل الأستاذ الدكتور إشارة ابن إسحاق إلى أن الوليد المغيرة قد نزل فيه قرآن يشنّع عليه ويهدده (لمعاداته للرسول وصدّه عن سبيل الله) بأنه والد خالد بن الوليد . يريد أن يقول إن ابن إسحاق إنما قصد بذلك إلى الانتقام من خالد ، الذى سبِى جدّه يسار على يديه[3] . ولعل أبلغ رد على هذا هو التنبيه إلى أن كل كتب السيرة وأسباب النزول والتفسير

---

(١) بل لقد ذكر أنه ، رضى الله عنه ، قد تأخر فى إسلامه ، أو على الأقل فى إعلان إسلامه ، خوفا على تجارته وماله كما مرّ ذكره .

(2) La Biographie du Prophète, p. 166 .

(٣) المرجع السابق / ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

التى نعرفها تقول هى أيضاً هذا الذى يقوله ابن إسحاق . ولا ننسَ أن الوليد هذا مات كافرا ، بل وتأخر إسلام ابنه خالد إلى ما بعد الهجرة بزمن غير قصير . أفكان خالد قد سبّى جدود كتّاب السيرة وعلماء القرآن ومفسّريه جميعا فحنقوا عليه لهذا وأطبقوا على هذا البهتان انتقاماً منه ؟ ثم هل الوليد هو وحده الذى نزل فيه قرآن يتوعده ويتهدده بعذاب النار لإصراره على الشرك ومحادّته لله ورسوله وكيده للإسلام والمسلمين؟ إن الذين نزل فيهم قرآن لشركهم أو نفاقهم كثيرون ، ولم يَسُبِّ أحد منهم ولا من أبنائهم جدَّ ابن إسحاق ولا أحدا من أقاربه .
وعلاوة على ذلك فقد أبرز ابن إسحاق فى « سيرته » مناقب خالد : كدوْرِه العظيم فى إنقاذ الجيش الإسلامى فى مؤتة بعد استشهاد قواده الثلاثة والرجوع به موفور الكرامة دون مزيد من الخسائر [١]، ومشاركته فى قيادة جيش الإسلام فى فتح مكة[٢]، وتكليف الرسول إياه بهدم العزّى[٣] ، وتشريفه له بحمل رسالته إلى ملك دومة أكيدر بن عبد الملك يدعوه إلى الإسلام [٤]، وإسلام بنى الحارث بن كعب على يديه لما سار إليهم بأمر الرسول عليه السلام فى سنة عشر من الهجرة[٥]، وغير ذلك .

ويمتد تشكيك المؤلف الساحق الماحق (الذى لا يكاد يغادر صغيرة

---

(١) سيرة ابن هشام / ٤ / ١٤ .
(٢) المرجع السابق / ٤ / ٣٧ .
(٣) السابق / ٤ / ٦٠ .
(٤) السابق / ٤ / ١٢٥ .
(٥) السابق / ٤ / ١٧٧ ـ ١٧٨ .

ولا كبيرة فى وقائع السيرة النبوية إلا اعترض عليها وكذّبها) إلى رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فيقول : كيف أقدم عليها ﷺ وحده رغم أنه كان معرّضا للأذى والخطر من جانب قريش على مدى تلك المسافة الطويلة بين مكة والطائف ؟ وكيف يؤمن به عدّاس غلام عتبة وشيبة ابنَىْ ربيعة لمجرد أنه عليه السلام كان يعرف النبى يونس ؟ (١)

وقبل أن أدخل فى تفصيلات الردّ على كلام الأستاذ الدكتور لا بدّ من لفت النظر إلى أن منهجه التشكيكي الذى يهدف إلى زعزعة الثقة فى كل شىء على هذا النحو ليس من المنهج العلمى فى شىء ، وإلاَّ فما أسهل أن ينطلق أى إنسان فى عناد فيعلن ارتيابه فى جميع الأشياء والأشخاص ! إن باب الشك إذا فُتِح بهذه الطريقة فلن يمكن إغلاقه أبدا ما دام لا يوجد ضابط يحكم عملية فتحه وغلقه . والمهم هو أن تكون هناك أسباب للشكّ وجيهة . وقد وضّحنا من قبْلُ تهافتَ الأُسس التى بنى عليها المؤلف اتهامه لابن إسحاق ، كما أظهرنا للقارئ أن الشكوك التى أثار رياحها حول المسائل السابقة هِىَ شكوك فى غير محلها تماما ولا تثبت على محك التمحيص التاريخى والمنطقى . أما بالنسبة للشك فى رحلة الطائف فإننا نتساءل : لم يا ترى اخترعها ابن إسحاق ؟ إنه ليس هناك فى الواقع من سبب لهذا إلا إذا قلنا إن الرجل كان يتنفس

(1) La Biographie du Prophète, p. 291 .

الكذب تنفسا وكان التزييف يجرى فى دمه فلا يستطيع أبدا أن يقول كلمة صدق ، فهل كان ابن إسحاق هكذا ؟ لقد اتضح مما سقناه فى ترجمته أنه كان رجلاً فاضلا وعالما ثقة ، ومن ثم فلا يصح ، لا من الوجهة العلمية ولا من الوجهة الخلقية ، أن نتهمه بذلك . ولنفترض أنه كان كذّابا مزيّفا كما يريدنا الأستاذ المؤلف أن نقتنع ، فهل كان المسلمون المعاصرون له ، وبخاصة الذين أسند إليهم هذه الأكاذيب ، وكذلك من أتوا بعده من العلماء هم أيضا كذابين إلى أن ظهر الدكتور مراد فكان هو الوحيد الذى تنبّه إلى هذه الأكذوبة الكبرى ، أكذوبة السيرة التى كتبها ابن إسحاق ، أو على الأقل كان هو الوحيد الذى لديه الشجاعة للصدّع بكلمة الحق بشأنها ؟

أما عن سؤال الأستاذ المؤلف كيف أقدم النبى على رحلة الطائف وحده رغم أنه كان معرّضا للأذى والخطر من جانب الكفّار على مدى تلك المسافة الطويلة بين مكة والطائف ، فرغم أن ابن إسحاق[1] لم يذكر لنا تفاصيل الطريق فإن ذلك لا يصلح أبدا أن يكون مرتكزا للشك فى الرحلة كلها ، فإن جهلنا بكيفية حدوث شىء ما لا يعنى أن ذلك الشىء لم يقع ، إذ هاتان مسألتان مختلفتان تماما . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون الرسول عليه السلام قد خرج من مكة فى وضح النهار وتعرض للسخر والتهكم أو ربما وقع عليه بعض الأذى البدنى كما كان

(١) ومثله فى ذلك سائر كتاب السيرة فيما نعلم .

يحدث له في كثير من الأحيان في داخل مكة نفسها ، وقد تكون قريش تركته يخرج ظنًا منها أنها فرصة للتخلص منه . والدكتور نفسه قد قال شيئا كهذا عندما اعترض على ما قاله ابن إسحاق بشأن ما عرضه أحد العرب من بني عامر(١) على النبي من الذهاب معه إلى بلاده والدخول في حمايته ورغبة ذلك الرجل في التثبت من المكاسب التي ستعود عليه وعلى قومه من جراء هذه الحماية التي ستجلب عليهم عداوة قريش ، إذ تساءل د. مراد قائلاً : أية عداوة سيجرها خروج الرسول معه إلى بلاده مع أن هجرته إليهم من شأنها أن تضع حدًا للخلاف بينه وبين أهل مكة ؟(٢) ألا يرى القارئ كيف أن الدكتور قد وضع مخالفة ابن إسحاق وتخطئته في كل ما يقول مبدأ له لا يحيد عنه ؟ إن خروج النبي إلى الطائف حيث لم يُجِرْه أحد من أهلها أو يَدْعُه إلى هناك لهو أهون على قومه وأقلّ إثارة لهواجسهم ومخاوفهم من الذهاب مع ذلك العامري ، فمثل ذلك الخروج يمثل في نظرهم غاية الضعف والانكسار ، وهو قمين بأن يثير شماتتهم ونشوتهم ، أما ذهابه إلى قوم آخرين عاهدوه على الحماية والنصرة ويرجون من ورائه السيادة والمجد والسلطان فقصة أخرى . ومع هذا فالأستاذ الدكتور يقبل تلك القصة الأخرى ويردّ قصة الرحلة إلى الطائف !

هذا عن السؤال الأول ، أما فيما يخصّ عدّاساً فليس في الأمر أية

---

(١) هو بَيْحَرَة بن فِراس . وانظر قصته مع الرسول عند ابن هشام / ٢ / ٥١ ـ ٥٢ .

(2) La Biographie du Prophète, p. 296 .

مشكلة ، فالناس متفاوتون فى استجابتهم لما يُعْرَض عليهم من دعوات جديدة : منهم الذى يسارع إلى الدخول فيها ، ومنهم الذى يتأنى ، ومنهم الذى يتردد ، ومنهم الذى يحاربها فى البداية ثم ينتهى أمره إلى التسليم بها والدفاع عنها بنفس الحرارة التى كان يحاربها بها أولا ، ومنهم الذى يدخل فيها بعد عناد ولكنه لا يتحمس هذا التحمس ، ومنهم الذى يظل طول عمره معاديا لها ثم يموت وهو لا يزال يحاربها ويصدّ عنها ... وهكذا . والذين أسلموا فى بداية الدعوة المبكرة هم من الصنف الأول ، فما وجه المشكلة فى أن يكون عدّاس منهم ؟ أم قد خلا الناس جميعا من العقل والرحمة فلا يمكن أن يؤمن من يؤمن منهم ، كائنة ما كانت موافقة الظروف لهذا الإيمان ، إلا بعد اللُّتيّا والتى؟ على أن الأمر فى قصة عدّاس لا ينحصر فى أن الرسول كان يعرف النبى يونس بن متى ، الذى كان من أهل نينوى بلد عدّاس نفسه، بل لفت انتباه عداس أيضاً أن الرسول عليه السلام لم يبدإ الأكل من قطْف العنب الذى حمله إليه ذلك الخادم بأمر من سيِّدَيْه إلا بعد ذكر اسم الله تعالى عليه ، وهو ما عجب له عدّاس أشد العجب ، وحقٌّ له ، لأنه يخالف عقائد الوثنيين وتقاليدهم فى أكلهم . ولقد كانت الظروف التى جمعته بالنبى عليه السلام كفيلة بأن ترقّق قلبه وتفتح عقله وضميره ، فقد لجأ الرسول إلى بستان سيّدَيْه يحتمى به من الحجارة والشتائم التى كانت تنهال عليه من سفهاء الطائف وعبيده وصبيانه دون أى ذنب جناه . وبالمناسبة فمن الممكن جدا أن تكون قريش ، حين رأت الرسول يخرج من مكة ، قد علمت على هذا النحو أو

ذاك بأنه متوجه إلى الطائف فسبقته وأرسلت إلى بعض من تعرفهم من الحمقى قساة القلوب هناك أن يستقبلوه هذا الاستقبال اللاإنسانى . وها هو ذا عداس فى حضرة ذلك الرجل الذى لا بد أن نُبْلَه لم يَخْفَ عليه والذى تطارده هذه الوحوش البشرية دون أية إساءة اقترفها فى حقهم، هذا الرجل الذى كان غريباً مثله ، وكان أيضا مثله فى عدم إيمانه بالأصنام، وكان كذلك مثله ضعيفا لا حول له ولا طول . ثم ها هو ذا يذكر اسم الله أمامه على الطعام ويذكر اسم النبى يونس بن متى ، الذى تربطه بعداس وشيجة الانتماء إلى نفس الوطن : الوطن البعيد الذى لا بد أنَّ نطق الرسول باسمه قد أثار كوامن الذكريات والأشجان فى قلبه . وربما سمعه حين التجأ إلى البستان وهو يناجى ربه تلك المناجاة التى تفتّت قلب الحجر رحمة وحنانا قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعَفين وأنت ربى . إلى من تَكِلُنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى ؟ أم إلى عدوّ ملّكْتَه أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنْزِل بى غضبك أو يحلّ علىّ سخطك . لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . أفيكون غريبا بعد هذا كله أن يهش عداس لذلك الإنسان ويبدى ابتهاجه بتلك المصادفة السعيدة ؟[1] والله يا دكتور إن ما تقوله لحرام ! والحمد لله

(١) انظر قصة ذهابه عليه السلام إلى الطائف من أولها إلى آخرها فى سيرة ابن هشام/ ٢ / ٤٧ - ٤٨ .

أن سيادته لم يقل إن ابن إسحاق كانت تصله بعداس هذا صلة قرابة أو كانت له عند ذريته بعض المصالح فنسب إليه ذلك الفضل !

فإذا بلغنا الاتصالات التى تمت بين النبى عليه الصلاة والسلام وأهل يثرب والتى انتهت بهجرته صلى الله عليه وسلم إلى بلادهم وإقامة دولة للإسلام هناك نجد المؤلف كديْدَنه لا يكف عن التشكيك فى كل حدث من أحداثها : فهو أولا يرمى ابن إسحاق بالتحيز لأهل المدينة ضد قريش والمبالغة فى أعداد الذين دخلوا الإسلام من أولئك مع قوله عن المسلمين من هؤلاء إنهم كانوا « قليلا مستضعفين » . وهو ثانيا يعود فيقول : كيف نوفّق بين ذِكْر ابن هشام ، أثناء روايته لحادثة الإسراء والمعراج ، أن الإسلام فشا فى مكة وفى القبائل كلها [١] وقوله بعد ذلك إن من آمن به كانوا أقليةً ضعيفة؟ [٢] وهو ثالثا يبدى دهشته من انتشار الإسلام بهذه السهولة المتناهية وبتلك السرعة الشديدة وفى ذلك الزمن القصير بين أهل المدينة فى الوقت الذى لم يشقّ طريقه فى مكة طوال ثلاث عشرة سنة إلا بمنتهى البطء وفى أضيق نطاق . وهو رابعا يتساءل عن السرّ فى أن اليهود لم يحاولوا ثنّى اليثربيين عن الدخول فى الإسلام مثلما قالوا لقريش : إن دينكم أفضل من دين محمد [٣].

---

(١) انظر ابن هشام / ٢ / ٣٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ٤٦ .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 289 , 302 - 303 .

ومقطع القول أنه ليس من حق أحد أن يشكك فى وصف ابن إسحاق لمسلمى مكة بأنهم كانوا « قليلا مستضعفين » لسبب جدّ بسيط هو أن هذا قد ورد فى القرآن الكريم ، إذ يقول الله تعالى للرسول وأصحابه عقب الهجرة ممتنًا عليهم بأنه هيأ لهم الانتقال إلى المدينة وفتح قلوب أهلها لهم : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [1]. أم ترى الأستاذ الدكتور يشك فى هذه الآية أيضاً ؟ [2] لا ، لا أظنه يفعل ، فهو مسلم ، لكنه الإسراف فى سوء الظن بابن إسحاق وسيرته والرغبة فى تلويث ذمته! وهذا الذى يقوله ابن إسحاق هو ، بالمناسبة ، ما تقوله كل كتب السيرة قبل ابن إسحاق وبعده ، وليس من المنهجية العلمية أن نقول بأنهم موالون لأهل المدينة ، وهى التهمة التى يتهم المؤلف بها ابن إسحاق رغم أننا قد رأينا أنه مولى لقبيلة قرشية وأنه قد غادر المدينة منذ وقت مبكر ، فضلا عن أن عروة وابن شهاب الزهرى القرشيين (وهما مجرد مثالين ليس إلاّ) يقولان الكلام ذاته عن ظاهرة بطء انتشار الإسلام وصعوبته فى مكة وسرعته وسهولته فى يثرب . وإلا فبالله عليك أيها القارئ كيف نفسّر هجرة

---

(١) الأنفال / ٢٦ .

(٢) المؤلف يؤكد أن عدد المسلمين فى مكة لم يكن قليلاً على عكس ما يقول ابن إسحاق ، والدليل على ذلك هو فظاعة الاضطهاد الذى أنزله القرشيون بالمسلمين بسبب خوفهم منهم على دينهم ومؤسساتهم (ص ٣١٨ ـ ٣١٩) .

النبى ومسلمى مكة إلى المدينة وثناء القرآن على أهلها الذين رحّبوا به وقوله عنهم إنهم « آووا ونصروا » وتسميته إياهم بـ « الأنصار » (بالألف واللام الدالتين على الماهية والاستغراق معا) وعدم تسجيل التاريخ فى أى كتاب من كتبه أنهم وقفوا من دين محمد وقفة قريش منه أو عذّبوه أو عذّبوا أحدا من أتباعه ؟ وبم نفسّر قيام دولة هناك منذ اليوم الأول لوصوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما كنتُ أظن أن من الممكن الذهاب مع التشكيك إلى هذه الآماد الشاسعة فى أمر لا يقبل نقضا ولا إبراماً لأنه فوق كل شكّ وفوق كل تكذيب .

أما قول ابن إسحاق قبل ذلك إن الإسلام قد فشا بمكة وفى القبائل كلها فمن السهل فهمه على أنه فشوّ نسبىّ لا على إطلاقه ، أى أن شيئا من السرعة قد اعترى خطوة الإسلام التى كانت فى بداية الأمر بطيئة كخطوة السلحفاة ، ولم يعُدْ أتباع الدين الجديد يستَخفّون به كما كانوا يفعلون قبلا . كذلك ينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه قال أيضا عقب الإسراء والمعراج إن كثيرا من المسلمين قد ارتدّوا عن دينهم لعدم مقدرتهم على تصوُّر ذهاب الرسول إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة فى نفس الليلة [١] ، أى أن عددهم قد تناقص وأصبحوا هدفا لمزيد من السخرية القارصة والاضطهاد الشديد . ثم إنهم فى الحالين كانوا أضعف وأقلّ من أن يستطيعوا الوقوف فى وجه هذا السيل العاتى من الكراهية

---

(١) انظر ابن هشام / ٢ / ٣٣ ـ ٣٤ .

والعداء . وحتى لو افترضنا بعد ذلك كله أن التعبير قد خان قلم ابن إسحاق فى هذه النقطة فإن هذا لا يطعن فى صدقه ، إذ ما من كاتب إلا وهو معرّض لمثل هذا فى بعض الأحيان . ولو قارنّا ابن إسحاق فى هذا المجال بالدكتور مراد مثلا فسوف يَكْسِب ابنُ إسحاق بالضربة القاضية !

إن علينا ألا ننسى أن مكة كانت معقل الوثنية ، وفيها الكعبة التى كان يحجّ إليها العرب جميعا من مشارق الجزيرة ومغاربها والتى ارتبطت مصالح أهلها بها ، ومن شأن هذا كله أن يدفعهم إلى التشبث بدينهم والعناد فى الذبّ عنه ومعاداة من يأتيهم بدين ينقضه ويهدمه . ولأمرٍ ما قيل : « لا كرامة لنبى في وطنه ». وفوق هذا وذاك فإن ابن إسحاق قد عزا سرعة استجابة اليثربيين للإسلام إلى أسباب خارجة عنهم ، إذ قال إن مساكنة اليهود لهم في بلادهم قد هيأت لهم الفرصة ليسمعوا منهم عن النبى الذى أظل زمانه والذى كان اليهود أنفسهم ينتظرونه بل ويهددونهم بأنهم سيتبعونه ويحاربونهم تحت رايته [١] ، وهو ما يدل على ابن إسحاق لم يكن يهدف إلى تمجيد الأنصار بل إلى كتابة وقائع التاريخ كما وصلت إليه . وهذا ثابت فى القرآن فلا سبيل إلى المماحكة فيه ، وإن كان اليهود (كما قال القرآن أيضاً) قد انقلبوا عند هجرة الرسول إلى بلادهم وعرّضه الإسلام عليهم فكانوا أول كافر به . قال عز شأنه : ﴿ ولما جاءهم (أى اليهود) كتابٌ من عند الله مصدّقٌ لما معهم،

---

(١) المرجع السابق / ٢ / ٥٤ ــ ٥٥ .

وكانوا من قبْلُ يستفتحون (أى يستنصرون به) على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا (أى ما كانوا يعرفونه من ظهور نبى فى ذلك الوقت) كفروا به . فلعنة الله على الكافرين ! ﴾ (١). وقد مضى القرآن الكريم فى الآية التالية لهذه فبيّن السبب فى هذا الكفر المفاجئ ، إذ أرجعه إلى بغيهم وحقدهم على العرب ، الذين جعل الله هذا النبى منهم ولم يجعله من بنى إسرائيل . وهذا يفسّر لنا بدوره خبث اليهود وتلوُّن مواقفهم حسب السياق : فهم فى المدينة يهددون جيرانهم العرب بالنبى الذى ينتظرونه ، وهم مع أهل مكة يشايعونهم على كفرهم ويؤكدون لهم أن وثنيتهم خير من دين محمد ، الذى جاءهم بالتوحيد ، رغم ما يصدّعون به دماغ العالم كله من أنهم هم القوامون على ذلك التوحيد . ولا تسألنى لماذا كان اليهود متلونين هكذا ، فهذه طبيعة شخصيتهم بعامّة : لا وفاء لهم ، ولا قداسة عندهم لشىء . ومن قبْلُ عبدوا العجل بمجرد أن غاب موسى عن أعينهم . وكثيرا ما تسافهوا ، فى حربهم الكلامية ضد الرسول ، على الله نفسه الذى يدّعون أنهم أبناؤه وأحباؤه ، إذ قالوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ (٢) و ﴿ يد الله مغلولة ﴾ (٣) . كما سجّل العهد القديم والعهد الجديد معاً عليهم كفرهم المتكرر وخياناتهم التى لا تنقطع . فلا معنى إذن لاستغرابِ

---

(١) البقرة / ٨٩ .

(٢) آل عمران / ١٨١ .

(٣) المائدة / ٦٤ .

المؤلف تناقضَ موقفهم وقوله إنهم ما داموا كانوا يؤمنون بأن نبيا سيُبْعَث في تلك الأيام لقد كان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين به[١].

والمؤلف يتهم أيضا ابن إسحاق بأنه تلاعب بالقرآن وعبث به من أجل غرضه في الإعلاء من شأن اليثربيين ، إذ جعل الآية الثانية عشرة من سورة « الممتحنة » ، وهي من الوحي المدني المتأخر ، أساس أولى البيعتين المسمّاتين ببيعتي العقبة[٢]. وهذا هو نص الآية المذكورة : ﴿ يا أيها النبي ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يُشْرِكن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يَعْصينك في معروف فبايِعْهنّ واستغفر لهنّ الله . إن الله غفور رحيم ﴾ .

ولكن كيف يمكن اتهام ابن إسحاق بهذه التهمة الخطيرة التي لا أعرف كيف واتى الأستاذَ الدكتورَ قلبُه على الإقدام عليها بضمير خفيف كهذا مع أن ابن إسحاق ليس هو الوحيد الذي قال ذلك ، بل ذكره كثير من العلماء ، ومنهم البخاري في « صحيحه »[٣]، وكذلك ابن حزم في « جوامع السيرة » ، وإن لم يورد الآية مكتفيا بتسمية البيعة بـ « بيعة النساء »[٤]، وهما مجرد مثالين من العلماء المتقدمين فقط ، ودعنا من المتأخرين ؟ قد يقال : ولماذا لم يذكر القرآن هذه البيعة والعهد

(1) La Biographie du Prophète, p. 308 .

(٢) المرجع السابق / ٣٢٦ .

(٣) صحيح البخاري / ٢ / ٣٢٩ .

(٤) انظر « جوامع السيرة النبوية » / ١ / ٩٨ ـ ١٠٢ .

الذى أخذه رسول الله فيها على أهل يثرب ، على حين ذكر نصّ هذا العهد فى بيعة النساء بعد صلح الحديبية ؟ والجواب سهل لمن يتدبر الأمر ، فقد كان هذا العهد بوجه عام هو المطلوب من أى شخص يريد أن يدخل فى الإسلام فى الظروف العادية التى لم يكن فيها حرب [١] ، ولهذا نجده يتكرر بنصه فى البيعة التى أخذها صلى الله عليه وسلم على النساء عند فتح مكة [٢] ، ولكن لم يكن من الممكن أن ينزل وحى يشير إلى لقاء الرسول باليثربيين فى العقبة ولا إلى ما دار بينه وبينهم لأن الأمر كان يتم سرًا بعيدا عن عيون قريش ورقبائها ، ولو قد علمتْ به لأحبطته أو لاعتدت على الرسول ومعاهديه وربما قتلته أيضاً . أما بعد أن مضت الظروف التى كانت تتطلب السرّية والحذر وقامت دولة الإسلام فى المدينة وثبتت أوتادها وأطنابها فقد نصّ الوحى على شروط هذه البيعة فى سياق حديثه عن هجرة النساء المؤمنات من مكة إلى المدينة وما ينبغى أن يَقُلْنَه فى العهد الذى يعطينه للرسول عليه الصلاة والسلام . ومع هذا كله فيغلب على ظنى أن تسمية بيعة العقبة الأولى بـ « بيعة النساء » هو اصطلاح متأخر ، على الأقل عن بيعة الحرب فى العقبة الثانية ، التى أصبح ممكنا بعدها التمييز بين هذين اللونين من المعاهدات .

---

(١) انظر مثلا « تاريخ الطبرى » / ٣ / ٦١ ، وصحيح البخارى / ٤ / ٢٤٧ ، وصحيح مسلم / عيسى البابى الحلبى / ٢ / ١٤٢ .

(٢) انظر « تاريخ الطبرى » / ٣ / ٦١ - ٦٢ ، وصحيح البخارى / ٤ / ٢٤٧ على سبيل المثال .

وفى بيعة العقبة الثانية نسمع نفس النغمة التشكيكية ، فالأستاذ الدكتور ينكر إنكارا باتًا أن يكون قوله تعالى : ﴿ أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ [(١)] قد نزل فى مكة[(٢)] لأن سورة « الحج » (كما يقول) سورة مدنية . وهو يبغى من وراء هذا إنكار حدوث هذه البيعة من أصلها ، إذ يقول إن الإسلام كان معروفا فى المدينة قبل بيعتى العقبة عن طريق المكيين الذين يترددون على يثرب للتجارة أو لزيارة الأقارب ، أو عن طريق اليثربيين الذين يفدون إلى مكة لهذين الغرضين أو لغرض الحج ، أو عن طريق القبائل الأخرى التى تَقْدَم إلى المدينة وعندها علم بالإسلام ، وإن بعض أهل المدينة دخلوا من ثَمَّ الإسلام ، الذى لقى مقاومة أعنف فى يثرب سواء من جانب المشركين أو من جانب اليهود، وإن التعذيب قد ظل يمارَس لسنوات طويلة فيها ، ثم أخذ التجار المكيون المسلمون يتوافدون إليها ، ثم أرسل الرسول بعض مبعوثيه كمصعب بن عمير للمراقبة والإشراف ، ثم هاجر هو بعد ذلك عندما أصبح الوضع فى مكة لا يطاق[(٣)]. ولكن لماذا اخترع ابن إسحاق بيعة العقبة الثانية ؟ يجيب د. مراد بأنه قد أراد أن يعادل بها بيعة الرضوان التى تمت بين المسلمين ونبيهم إثر سريان الشائعات بمقتل عثمان على أيدى كفار مكة حين أرسله الرسول عليه

---

(١) الحج / ٣٩ .

(٢) قبل بيعة العقبة الثانية كما عند ابن إسحاق .

(3) La Biographie du Prophète pp 314 - 315, 319, 383 - 384 .

السلام إليهم ليفاوضهم فى أمر دخول المسلمين مكة لتأدية العمرة ، تلك البيعة التى يقول إن أيّا من الأسماء المدنية المذكورة فى بيعة العقبة الثانية لم تظهر فيها والتى يرجّح أن المهاجرين كانوا يمثلون أغلبيتها نظرا للحماسة الشديدة التى لا بد (فى نظره) أن يكونوا قد أبدوْها بسبب شوقهم إلى رؤية مكة وطنهم [١] . وهو ، مع ذلك كله ، يعود فيقول إنه لا يستبعد أن يكون قد تمّ لقاء بين النبى عليه السلام وبعض اليثربيين فى العقبة ، لكنه كان لقاءً عاديا عبّر فيه مسلمو يثرب هؤلاء عن فرحتهم برؤية نبيهم وأخذوا يسألونه عن بعض أمور الدين وما إلى ذلك ، ولا شىء غير هذا [٢] . وأخيرا فإنه يرى أن هجرته صلى الله عليه وسلم إلى يثرب لم تكن لها أية صلة ببيعة الحرب المزعومة ، فالهجرة عنده لم تكن أمرا اختياريا بل المشركون هم الذين نفَوْا الرسول والمسلمين وأخرجوهم من وطنهم إخراجا[٣] كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وكأيِّنْ من قرية هى أشدّ قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ! ﴾ [٤]، وقوله عز وجل : ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيْمانهم وهمّوا بإخراج الرسول ...؟ ﴾ [٥]، وقوله سبحانه :

---

(١) المرجع السابق / ٣٤٨ _ ٣٥٠ .

(٢) السابق / ٣٥٢ _ ٣٥٣ . ومع ذلك فسوف يقول بعد قليل (ص ٣٦٢) إن اليثربيين فى اجتماع العقبة قد ناقشوا مع الرسول مسألة تأمين حياته .

(٣) وبالمثل تذكر كارين أرمسترونغ أن القرآن إنما يتحدث عن « إخراج » الرسول والمسلمين (سيرة النبى محمد / ٢٢٨) .

(٤) محمد / ١٣ .

(٥) التوبة / ١٣ .

﴿ الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا : ربُّنا الله ﴾ [١]. وهو يضيف قائلا إن لفظ « الهجرة » لم يُسْنَد قط إلى الرسول فى القرآن[٢]، وإن الآية الثلاثين من « الأنفال » التى تتحدث عما كان المشركون ينتوونه بشأن الرسول عشية تركه مكة إلى يثرب لا تذكر إلا ثلاثة أشياء : الإثبات (أى الحبس) أو القتل أو الإخراج . وما داموا لم يحبسوه أو يقتلوه فليس غير الإخراج ، وبخاصة أن الآية لا تشير إلى أن قريشا قد اجتمعت عشية الهجرة لتقرير مصير الرسول بل تشير إلى اجتماعات عدة بدأت مع بداية الدعوة لهذا الغرض[٣] . كما يقول إن آية ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ [٤]، التى يقول ابن إسحاق إنه صلى الله عليه وسلم قد تلاها عند خروجه من بيته ليلة مغادرته مكة فكانت سبباً فى أن أعمى الله فتية قريش المتربصين له عند الباب فلم يروه ، إنما نزلت قبل ذلك بوقت طويل ، فضلاً عن أنها جاءت فى سورتها فى سياق الكلام عن البعث ، ومن ثم فلا صلة لها بالهجرة من قريب أو بعيد [٥].

---

(١) الحج / ٤٠ .

(2) La Biographie du Prophète, pp. 358 - 359 , 370 - 378 .

(٣) ليس فى الآية ما يشير إلى اجتماعات عدة لقريش كما يقول الأستاذ المؤلف ، وهذا هو نصها : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثْبِتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك . ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

(٤) يس / ٩ .

(5) La Biographie du Prophète, p. 360 .

ونبدأ بسورة « الحج » وهل هى مكية أو مدنية . والمؤلف يعتمد ، فى تصنيفها ضمن الوحى المكى ، على بلاشير . والواقع أن الغالب بين علماء القرآن فعلا هو هذا الرأى ، لكنى لست مقتنعاً به ، فسمات القرآن المكى غالبة على السورة : كالرد على مجادلة الكفار ، وتسفيه عبادتهم للأصنام ، والإشارة إلى سطوتهم بالمؤمنين واستعجالهم بالعذاب وإلقاء الشيطان فى أمنية النبى وتكذيب الأمم السابقة ، وخلوها خلوّا تامّا تقريبا من الآيات الطويلة . وإلى جانب ذلك ففى السورة عدد من الخصائص الأسلوبية التى تميز الوحى المكى : فكلمة « الساعة » (بالألف واللام بمعنى « القيامة »)[1] قد وردت فى غير سورة «الحج» سبعا وثلاثين مرة منها أربع وثلاثون فى القرآن المكى وثلاث فقط فى المدينة ، كما أن عبارة « أفلم يسيروا فى الأرض ...؟ »[2] قد تكررت فى القرآن ست مرات كلها فى الوحى المكى ، ومثلها عبارة « نذير مبين»[3] ، التى أتت فى القرآن ١٠ مرات كلها فى مكة ، وكذلك عبارة « أرسلنا ... (من) قبلك »[4]، إذ نقابلها فى القرآن فى خمسة عشر موضعا كلها مكية . أما وصف الله بأنه « الحق »[5] فالغالب أنه مكى، إذ نجده ست مرات فى الوحى المكى ومرة واحدة فى

(١) فى الآية السابقة من سورتنا .

(٢) فى الآية ٤٦ .

(٣) فى الآية ٤٩ .

(٤) فى الآية ٥٢ .

(٥) فى الآية ٦٢ .

المدنـي . ويشبهه فى ذلك ضَرْبُ «المثل» (بإفراد كلمة « مَثَل »)[١] ، فقد تكرر فى المكى ٩ مرات على حين لم يأت فى المدنى إلا مرتين ... وهكذا . ومع ذلك ففى السورة بعض الآيات التى يغلب على ظنى أن تكون قد نزلت فى المدينة كالآيات التى تتحدث عن الحجّ والصد عن المسجد الحرام . وقد وجدت الأستاذ دروزة يعد السورةَ هو أيضاً مكية[٢] .

السورة إذن فى معظمها مكية ، وعلى ذلك فلا ينبغى الاعتماد عليها فى إثبات مدنية الآية التى تأذن للمسلمين بالقتال . لكن ألا يمكن أن تكون هذه الآية إحدى الآيات التى ربما نزلت بعد مغادرة النبى مكة ؟ من الممكن هذا ، ومن الممكن أيضاً أن تكون قد نزلت بمكة بمناسبة بيعة العقبة الثانية ويكون استخدام الفعل الماضى فى قوله تعالى : ﴿ الذين أُخْرِجوا من ديارهم ﴾ إشارة إلى هجرتى الحبشة أو للتأكيد على وقوع الهجرة إلى المدينة فى المستقبل مثل استخدامه فى قوله عز شأنه : ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر ﴾[٣] ، ﴿ ونُفِخ فى الصُّور فَصَعِق مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض إلا من شاء الله ﴾[٤] . وقد يعضّد هذا التفسيرَ قولُه جل جلاله ، عن أولئك المظلومين المأذون

(١) فى الآية ٧٣ .

(٢) انظر كتابه « سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم – صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية » / ١ / ١٥٣ (الهامش) .

(٣) القمر / ١ .

(٤) الزمر / ٦٨ .

لهم بالقتال فى آية سورة « الحج » المذكورة آنفا ، إنهم هم ﴿ الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ﴾ (١) ، فاستخدام الجملة الشرطية هنا معناه أن الله لم يكن قد مكّن لهم فى الأرض بعد ، أى أنهم كانوا لا يزالون فى مكة ، لأن التمكين فى الأرض إنما كان فى المدينة حين أَمِنَ المسلمون ، وتحرروا من الاضطهاد والتعذيب ، وأصبحت لهم دولة، وأضحى بإمكانهم الردّ على القوة بالقوة .

وحتى لو قلنا إنها مدنية فلا يعنى هذا أنه لم تكن هناك بيعة حرب بين النبى وبين اليثربيين المسلمين ، إذ من قال إن القرآن لا بد أن ينص على كل شىء أو ، إذا نصّ ، أن يكون ذلك قبل وقوعه ؟ وكذلك ليس شرطا أن يكون هذا الشىء واجب التنفيذ بمجرد نزول الأمر أو الإذن به . ذلك أن الدكتور يقول : إذا كان الإذن قد نزل للمسلمين بقتال المشركين فلِمَ لَمْ نسمع أنهم قد وضعوا هذا الإذن موضع التطبيق ؟ أما الأذى الذى يدّعى المؤلف أنه وقع على المسلمين فى المدينة أشدّ وأعنف مما عرفته مكة فهو كلام مرسل دون دليل فلا ينبغى أن نعوّل عليه ونترك الثناء المتكرر فى القرآن الكريم على أهل المدينة كما بيّنا فيما مضى من صفحات .

ومثل ذلك ادعاؤه أن ابن إسحاق قد أراد ببيعة العقبة أن يعادل بيعة الرضوان ، وكأن ابن إسحاق كان رجلاً بلا ضمير ولا حياء ولا خشية من الله ، رجلا تجرد حتى من شعور الاحترام لنفسه ، إذ ظلّ يكذب ويكذب

---

(١) الحج / ٤١ .

حتى أخرج لنا فى النهاية سيرة نبوية كلها ضلال فى ضلال وزيف وبهتان من أولها إلى آخرها ! إن المؤلف يشير إلى أن أحداً من المذكورين فى العقبة الثانية لم يظهر اسمه فى بيعة الرضوان ، فأراد ابن إسحاق أن يخترع لهم بيعة تُذْكَر أسماؤهم فيها ، وواحدةٌ بواحدة ! ولكننا بدورنا نتساءل : ولِمَ لَمْ يذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء فى بيعة الرضوان ويريح نفسه بدل هذه اللفّة الطويلة ؟ ألم تقل يا دكتورنا العزيز إن ابن إسحاق قد وضع نُصْبَ عينيه ، وهو يكتب السيرة ، أن يحقّر من شأن قريش ويرفع من شأن الأنصار ؟ فلماذا لم يَضَعْ أسماء أهل المدينة فى غزوة الحديبية وصُلْحِها بدل أسماء أبى بكر وعمر وعثمان والمغيرة وابن عوف وابن أبى وقاص وعلىّ ، رضوان الله عليهم جميعا ؟ وعلى أية حال فهذه الأسماء المكية ليست هى أسماء الذين بايعوا الرسول بيعة الرضوان بل أسماء من اشتبكوا مع الكفار فى جدال أو ما أشبه ، أما أصحاب البيعة فلم يذكر ابن إسحاق منهم اسما واحدا . أى أن كل ما قاله الأستاذ الدكتور هو عراك فى غير معترك ! ثم إن كلاً من عروة بن الزبير (القرشى) وابن حزم (الذى لم تكن له ، كما قلتُ ، صلة بالمدينة أو بأهلها) قد ذكر هذه البيعة ، كما رأينا البخارى يسجّلها فى « صحيحه » ، وهو من بخارى ، ولم يحدث أن سكن المدينة .

وصحيح أن لفظ « الهجرة » لم يُسْنَد إلى الرسول فى أى موضع من مواضع القرآن ، لكن هذا مقصور على الإسناد المباشر ، إذ إن فى القرآن

أيضا هذه الآية التي تخاطب النبى قائلة : ﴿ يا أيها النبى ، إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيتَ أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبناتِ عمك وبنات عماتك وبناتِ خالك وبناتِ خالاتك اللاتى هاجرن معك ... ﴾ إلخ الآية [١]، فالمعية هنا تدل على أن الرسول عليه السلام قد هاجر وهاجرت معه قريباته أولئك . أما بالنسبة للمسلمين فقد تكرر في القرآن إسناد لفظ « الهجرة » لهم ، وهذا دليل على أنهم هاجروا ولم يُخرِجهم الكفار بالمعنى الحرفى . والآيات التى من هذا النوع كثيرة ومعروفة للقراء ، ولا داعى للاستشهاد بشىء منها . أما الآيات التى تتحدث عن « الإخراج » فهى تقصد المعنى المجازى ، إذ إن الكفار ، بتضييقهم على المسلمين فى دينهم ودنياهم وإيذائهم لهم وتعذيبهم إياهم، قد جعلوا عيشهم فى مكة مستحيلا ، وبات من الحتّم التفكير فى بلد آخر يتنفسون فيه هواء الحرية والأمن والكرامة فهاجروا إلى المدينة . فهذا التضييق والتعذيب الذى ألجأهم إلى الخروج هو بمثابة «الإخراج» لهم ، وهو ما يسمّى فى البلاغة « مجازا مرسلا ». ومثله قوله سبحانه يخاطب رسوله عقب غزوة بدر : ﴿ كما أخرجه ربُّك من بيتك (أى لملاقاة المشركين) بالحقّ ﴾ [٢]، وقوله عزّ من قائل عن بنى النضير: ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول

---

(١) الأحزاب / ٥٠ .

(٢) الأنفال / ٥ .

الحشر ﴾ [١]، وقوله جلّ جلاله محذرا آدم وحواء من إغـواء إبليـس لهمـا : ﴿ فلا يُخْرِجَنَّكما من الجنة فتشقى ﴾ [٢] .

ثم لو كانت قريش هى التى نفت الرسول وأخرجته من دياره فكيف نفسّر مطاردتها له هو والصديق واختباءهما منها فى الغار لا يحميهما إلا اللّه سبحانه كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار، إذ يقول (أى الرسول) لصاحبه (أبى بكر) : لا تحزن ، إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تَرَوْها ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفْلَى . وكلمةُ الله هى العليـا ، والله عزيز حكيم ﴾؟ [٣] وإن تسمية الآية لمغادرة الرسول مكة « إخـراجـا » لدليل على مـا نقـوله من أن « الإخـراج » فى هذا السياق هو إخراج مجازى ، والاّ فلو كان القرشيون قد أخرجوه عليه السلام فعلاً فلماذا طاردوه ، وقد كان فى أيديهم فأخرجوه ؟ إن هذا لهو العبث بعينه . ثم لماذا يختبئ الرسول وصاحبه فى الغار ويخاف أبو بكر ويحزن لو كانت قريش هـى التـى أخرجتـهـمـا ؟ إن الاختبـاء والخوف لا يكونان إلا لأن هناك مطاردة بغيـة القبض عليـهـمـا . ولكن لماذا يريد القرشيون القبض على محمد ورفيقه ؟ يقول ابن إسحاق إنهم كانوا قد قرروا قتله عليه السلام ، لكنه استطاع أن يفلت من أيديهم .

---

(١) الحشر / ٢ .

(٢) طه / ١١٧ .

(٣) التوبة / ٤٠ .

وبهذا تتضح الصورة ، ويتضح أنه ، رحمه الله ، لم يأت بشيء من عنده ، فالذى قاله يقوله كل المؤرخين وكتاب السيرة وجامعي حديث الرسول ، اللهم إلا د. مراد ، فهل هذا معقول ؟ وسواء أتلا رسول الله ، وهو خارج من بيته مارًا بشبان قريش المتربصين به عند بابه ، آية سورة « يس » أم لم يقلها فإن هذا الأمر لا يقدم ولا يؤخر . ومع ذلك نحب ألا تفوتنا الفرصة لنبيّن أن اعتراض الأستاذ الدكتور بشأن هذه الآية هو اعتراض فى غير موضعه ، لأنه لا ابن إسحاق ولا غير ابن إسحاق قد قال إنها نزلت فى تلك المناسبة . وعلى أية حال فالآية المذكورة لا تتعلق بالبعث بل تشير إلي طمس الله على بصائر المشركين بِغَيِهِم وكفرهم فلا يؤمنون . وليس هناك ما يمنع من الاستشهاد بها فى مثل موقف الرسول عند مغادرته بيته ليلة الهجرة ، مثلما نستشهد ، فى غير مواطن الحرب والسلاح ، بقوله تعالى عن غزوة بنى قريظة : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ (١) ، ومثلما خاطب الصِّدِّيقُ الكفارَ وهم يحاولون خنق الرسول فى المسجد الحرام بقول مؤمن آل فرعون لآل فرعون : ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول : ربِّىَ اللهُ ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ ﴾ (٢) . هل يُعْقَل أن الأستاذ المؤلف يجهل هذا ؟ لا أظن ، فمَنْ فى مثل علمه لا يمكن أن يجهل شيئا كهذا . أفيكون هذا إذن منه لونا من ألوان المماحكة بغية مخالفة ابن إسحاق وتخطئته

---

(١) الأحزاب / ٢٥ .

(٢) انظر ابن هشام / ١ / ٢٥٩ .

بكل سبيل ؟ أعتقد أن الأمر هو ذاك .

على أن القصة لـمّا تنته فصولها ، فالدكتور مراد يرى أنه ليس ما يمنع من تخيُّل أن يكون الرسول قد طلب من القبائل غير القرشية ، المسلمة منها والمتعاطفة مع الإسلام على السواء ، استقبال المضطهَدين من مسلمى مكة عندهم ، وذلك بناء على قوله سبحانه في سورة «النحل» : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلموا لنبوِّئنَّهم فى الدنيا حسنة ﴾ [١]. وهو يضيف قائلا إن أفراد هذه القبائل هم من الأنصار الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، مثَلُهم فى ذلك مثَلُ أهل المدينة سواء بسواء ، وإن هذه الهجرات إلى مناطق الجزيرة العربية المختلفة هى التى ساعدت على انتشار الإسلام فيها [٢].

والواقع أن المسألة كلها ، كما قال د. مراد بنفسه ، ليست أكثر من تخيّل فى تخيل. أما الآية المذكورة فهى أشبه بأن يكون المقصود بها مهاجرى الحبشة ، إلا إذا كانت مدنيّة ، فعندئذ تكون الإشارة فيها إلى الهجرة للمدينة . كذلك فقد بيّنا مرارا فى هذا البحث أن الأنصار ، بنص القرآن الذى لا لبس فيه ، هم مؤمنو يثرب ، الذين فتحوا بلادهم وقلوبهم وبيوتهم وجيوبهم لإخوانهم المهاجرين .

وفى أواخر الكتاب يؤكد الكاتب الفاضل أن أحداً لم يَحْمِ الرسول فى مكة إلا الله سبحانه وإلا المسلمين ، وأنه لو حدث أن بنى هاشم

---

(١) النحل / ٤١ .

(2) La Biographie du Prophète, pp. 387 - 388 .

وبنى المطلب قد حَمَوْه لأشار إلى ذلك القرآنُ مثلما أشار إلى رهط شعيب فى قوله تعالى على لسان كفار قومه : ﴿ ولولا رَهْطُك لرجمناك ﴾ وردّ شعيب عليهم بقوله : ﴿ يا قوم ، أَرَهْطى أعزّ عليكم من الله ؟ ﴾ [1]. ثم يضيف قائلا إن الأنبياء السابقين هم أيضاً لم يحمهم أحد إلا الله . وهو يشير فى هذا الصدد إلى جعله سبحانه النار بردا وسلاما على إبراهيم ، كما يورد الآيات التى تؤكد أن الله وحده هو الحامى وتلك التى تحذّر من الركون إلى الكفار وتتوعد بالنار من يركن إليهم ، ويقول : لو لم يشعر الرسول بأنه كُفْءٌ لمواجهة الكفار وأنه مستغنٍ عن حمايتهم ما استطاع أن يؤدى واجبه فى الدعوة إلى دين الله ، ثم يضيف أنه عليه الصلاة والسلام لا يظهر فى القرآن خائفا فى مكة أبدا على عكس موسى ، الذى صرّح قائلا لربه : ﴿ إنى قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ [2]... وهكذا [3].

وقد سبق أن وضّحنا تفصيلا أن حصر الحماية فى الله سبحانه لا تعنى إلغاء دور المخلوقات ، فلا داعى إذن لإعادة القول فيه هنا . لكننى أحب مع ذلك أن أضيف أن آيتى سورة « هود » تدلان على عكس ما يريد الأستاذ الدكتور ، فالقرآن هنا يشير من طَرْفٍ خفىٍّ إلى سخف موقف مشركى مكة ، الذين كانوا يراعون جانب أهل الرسول ولا

---

(١) هود / ٩١ _ ٩٢ .

(٢) القَصَص / ٣٣ .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 408 - 412 .

يفكّرون فــي غضب الله . ولقــد قال المؤلف نفسه إنه لم يَحْمِ الأنبياء السابقين أحد إلا اللّه ، وها هي ذى آيات القرآن تقول بنص صريح إن قوم شعيب كانوا يكفّون عنه أذاهم مراعاةً لرهطه ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه يسبّب الأسباب . أليس كذلك ؟ ومثل هذا قول المؤلف إن المسلمين فى مكة كانوا يحمون رسولهم . ثم إنه قد أشار إلى معجزة النار التى لم تحرق سيدنا إبراهيم بوصفها طريقة من طرق الحماية الإلهية للرسل الكرام ، لكنه فى ذات الوقت أنكر على ابن إسحاق لجوءه إلى المعجزات لتفسير حماية الله لرسوله كقوله مثلا إنه سبحانه قد غَشَّى على بصر أم جميل زوجة أبى لهب فلم تر الرسول ، الذى كانت تعتزم أن تدق رأسه بحجر فى يدها [١] . أليس هذا تناقضا ؟ بلى هو كذلك ، فما سرّه يا ترى ؟ السرّ هو الرغبة العارمة فى تشويه صورة ابن إسحاق وتكذيبه .

أما تحذير القرآن للمسلمين من الركون إلى الذين كفروا حتى لا تصيبهم النار فلا صلة بينه وبين رضا الرسول عليه السلام بحماية أهله له، إذ الركون هو الرضا بكفر الكفّار والانحياز إليهم ، والرسول لم يفعل ذلك فى أية لحظة من حياته . وقد وجدناه يردّ على عمه قائلا بكل حسم حين طلب منه شيئا من المهادنة : « يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى

---

(١) المرجع السابق / ٣٧٨ ــ ٣٧٩ .

يُظْهِره الله أو أهلك دونه ما تركته ». بل لم يحـدث قَطُّ أن قال إن عمه هذا ناجٍ يوم القيامة . فأين الركون إلى الكفار هنا ؟

وبالنسبة لقول موسى لربه : ﴿ إنـى قتلـت منهم (أى من قوم فرعون) نفسا فأخاف أن يقتلونِ ﴾ فقـد ردّ اللـه عليه مطمئنا له بقوله: ﴿ سنشدّ عضُدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ﴾ (١). وهذا قريب من قوله عز وجل لرسوله محمـد : ﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهـا آخر فسوف يعلمون * ولـقد نعلـم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ (٢)، وقوله له أيضاً : ﴿ ألمص * كتابٌ أُنْزِل إليك ، فلا يكن فى صدرك حَرَجٌ منه لتُنْذِر به ﴾ (٣)، وقـوله له فى مسألة زيد وزينب : ﴿ وتخشى الناسَ ، والله أحق أن تخشاه ﴾ (٤).

وفى نهاية الرسالة يعود د. مراد فيكرر اتهاماته لابن إسحاق بأنه أراد محاباة العباسيين وأهل المدينة والانتقام من خالد بن الوليد ، الذى سبى جدّه ، ثم يعلق على ذلك قائلا إن ابن إسحاق لم يكن ولن يكون أول مؤرخ أو كاتب سيرة يرى الأحداث من خلال أهوائه . وقـد سبق أن

---

(١) القصص / ٣٥ .

(٢) الحجر / ٩٥ _ ٩٧ .

(٣) الأعراف / ١ _ ٢ .

(٤) الأحزاب / ٣٧ .

رددنا على هذا كله وبيّنا ما تنطوى عليه هذه الاتهامات من ظلم وإجحاف وقسوة لا مسوّغ لها البتة . ولكنى أحب أن أضيف إلى هذا أن البشر لا يخضعون دائما لأهوائهم ، وحتى الذين يخضعون لها هم درجات فى ذلك . أما التسوية بين الجميع فى السُّوء واتهام الجميع بالكذب والحرص على الدنيا والجرأة على الباطل وعدم الخوف من الله أو حتى من حكم المجتمع والتاريخ ، فذلك حكم غير مقبول ، وإلاَّ فعلينا ألا نصدّق أن هناك رجالا ونساء لا يزنون ولا يسرقون ولا يرتشون ولا يغشّون ولا يكذبون ، وأن نقيم آراءنا فى الناس على أنهم جميعا زناة ولصوص وغشاشون ومرتشون ومنافقون . أليس لكل فرد من البشر غرائز وميول ومصالح واتجاهات سياسية وعقدية معينة ولا بد أن يخضعوا لها فى نظر مؤلفنا ؟ وهل يرضى هو أن يقال عنه ، مع احترامى له ، إنه قد مالأ دوائر الاستشراق والدعاية الغربية ضد الإسلام حينما كتب رسالته هذه ما دام قد كتبها فى جامعة غربية تتبع دولة نصرانية معروفة بعدائها لديننا ويهمها التشكيك فى تاريخنا وكل ما نعتزّ به من تراثنا ؟ فانظر ، أيها القارئ ، إلام تأخذنا أحكام الأستاذ الدكتور !

(٣)

وبعد ، فهل معنى ذلك أن سيرة ابن إسحاق وابن هشام بريئة تماما من العيوب وأنه لا يحق للأستاذ الدكتور أن ينتقد أى شىء فيها ؟ الحق أن فى الجواب على هذا السؤال بالإيجاب ظلما للواقع غير مقبول ، ففى كتاب ابن إسحاق أشياء لا يهشّ لها العقل أو على الأقل لا يطمئن إليها تمام الاطمئنان .

فمثلا النَّسَب الواصل بين آدم ومحمد عليهما السلام الذى تبدأ به السيرة لا يستريح إليه ضمير الباحث العلمى . لقد كان العرب القدماء يثقون بذاكرتهم ومن ثم بالروايات الشفوية كثيرا ، لكن ينبغى أن نفرق بين رواية من هذا النوع لا تصل لأكثر من عدة أجيال وبين رواية أخرى تدّعى إمكان الوصول إلى فجر البشرية الأول . إن عبث الذاكرة فى أمثال الرواية الأولى يمكن تلافيه بدرجة أو أخرى عن طريق علم الجرح والتعديل، أما فى أمثال الرواية الثانية فلا مجال للنقد العلمى فى تقويم أخلاق الرواة وضبطهم ، إذ إننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء الرواة أصلاً ، بل لا نعرف كم من الأجيال (بل قل : كم من القرون ، أو بالأحرى كم من آلاف السنين) قد قطعتها تلك الروايات ! وقد أسعدنى أن أجد عددا من علمائنا القدماء يَرَوْنَ هذا الرأى مثل عبد الله بن مسعود وعروة بن الزبير ومالك بن أنس وغيرهم [١] .

---

(١) انظر ابن كثير / البداية والنهاية / دار الغد العربى / ١٤١١هـ - ١٩٩٠م / ١ / ٦٠٩ - ٦١٠ .

كذلك لا أستطيع أن أطمئن إلى النبوءة المنسوبة إلى الكاهن اليمنى سَطِيح التى تعَبّر رؤيا ربيعة بن نصر (أحد ملوك اليمن قبل الإسلام) بأن الأحباش سوف يحتلون بلاده لكذا من السنين ثم يخرجون منها ويتركونها لأهلها فيحكمهم ملك منهم (هو ذو يزَن) ويظل فى السلطان حتى يظهر نبى كريم نَسَبه كيت وكيت يكون المُلْك فى قومه إلى آخر الدهر حيث يبعث الله الموتى ويحاسبهم فيحسن إلى المحسنين منهم ويسىء إلى من أساءوا . ومثلها أو قريب منها تعبير الكاهن اليمنى الآخر (شِقّ) لنفس الرؤيا . ولا تقف الرواية فى ادعاء معرفة هذين الكاهنين الغيبَ عند هذا الحدّ بل تزيد فتزعم أنهما استطاعا بكل يسرٍ معرفة مضمون رؤيا الملك من تلقاء أنفسهما دون أن يخبرهما هو بشىء مما رآه فيها [1].

ومما تورده السيرة من روايات لا تُقْنِع العقل خبَرُ الرؤيا التى رآها عبد المطلب جد الرسول فى منامه بالكعبة لأربع ليال متتابعات تأمره بحفر زمزم ، ولكن باسم مختلف فى كل مرة : فهى طَيّبة فى الأولى ، وبَرّة فى الثانية ، والمضنونة فى الثالثة ، وزمزم فى الرابعة . وصورة الأمر والإجابة عليه واحدة فى كل مرة : فالهاتف الذى يأتى فى المنام يقول : احفر طيبة (برة / المضنونة / زمزم) ، فيرد الشيخ قائلاً : وما طيبة ؟ أو وما برة ؟ ... إلخ . وفى الليلة الرابعة يجيبه الهاتف على سؤاله الأخير : « وما زمزم؟ » بقوله : « لا تنزف أبدا ولا تُذَمّ . تسقى الحجيج الأعظم . وهى بين الفَرْث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم . عند قرية

(١) سيرة ابن هشام / ١ / ١٣ ـ ١٦ .

النمـل »[١]. وواضح مدى التعمل فى القصة ، وبخاصّة فى هذه الأسجاع وفى تكرار الرؤيا لأربع ليال متتالية مع تغيير اسم البئر فى كل مرة ، وكأنها أُحْجيّة لا أمرٌ سماوى يُقْصَد به تسهيل الحفر ! وفوق ذلك فقد ذكر ابن إسحاق قُبَيْل هذا الكلام أن عبد المطلب قد تولى أمر سقاية الحجيج بعد عمه المطَّلِب ، الذى وَلِيَها فيما يبدو بعد أخيه هاشم [٢]، وهو ما يعنى أن الماء كان متوفرا للحجاج قبل ذلك . ونحن نعرف أن زمزم قد نبعت منذ طفولة إسماعيل الأولى فكان الحجاج يشربون منها ويستقون . فمن أين كان الحجيج يحصلون على ما يحتاجونه من ماء قبل أن يعيد عبد المطلب حفرها ؟ هل كانت هناك آبار أخرى تقوم بهذه الحاجة ؟ إن كل ما يقوله ابن إسحاق فى هذا السياق هو أن جرهم قد تركت مكة بعد أن دَفَنَتْ زمزمَ إلى أن جاء عبد المطلب وحفرها[٣]. صحيح أنه قد كرَّر ذكر السقاية وانتقالها عبر جدود النبى عليه السلام حتى وصلت إلى عبد المطلب جدّه الأدنى، لكنه لم يعنَ نفسه بالإجابة على السؤالين اللذين طرحناهما آنفا .

وربما لم يتعدَّ صنيع عبد المطلب فى زمزم أنه رآها توشكُ أن تُرْدَم أو تحتاج إلى توسعة أو صيانة ، وربما رأى فى المنام رؤيا تحثه على ذلك ، فقام بالأمر . أما هذه التهاويل والأحاجى والأسجاع فأغلب الظن أنها

(١) المرجع السابق / ١ / ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) السابق / ١ / ١٣١ ، ١٢٥ . وكانت السقاية فى أجداد النبى السابقين على هاشم هذا على ما يذكر ابن إسحاق فى الصفحات السابقة .

(٣) السابق / ١ / ١٠٢ .

خيال قصصى جميل ، والله أعلم[1] !

ومثلها في الخيال ، فيما يبدو لى ، تلك الأشعارُ التى رثت بها عبدَ المطلب بناتهُ الستّ ، والتى يقول ابن هشام عنها : « ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر » . وفوق هذا فمن الغريب أن يفكر عبد المطلب وهو فى فراش الموت فى جمع بناته حوله لا لشىء إلا لكى يرثينه . وعلى كل حال فمن الطبيعى فى مثل هذه الحالة أن تحاول بنات الإنسان إدخال الطمأنينة على نفسه وتمنّى طول العمر له لا أن يجبهنه بشِعْرٍ مُعْوِلٍ كهذا يُدْخِل الغَمّ على نفس المُحْتَضَر . ثم هل كان جميع عمات الرسول شاعرات ؟ وأين كان أعمامه من هذا كله ؟ وهل كان الجاهليون يعرفون « القَدَر » الذى ذكرته برّة بنت عبد المطلب فى آخر رثائها له ؟ أما أختها أم حكيم فتصف أباها بأنه كان « ليثًا حين تشتجر العوالى » مع أن عبد المطلب لم يكن ، فيما نعرف ، من أهل القتال . كذلك من العجيب أن تتحدث أميمة عن نفسها بضمير المذكر فتقول : « وإنى لَبَاكٍ ما بقِيتُ ومُوجَعٌ »[2].

ولا يختلف عن ذلك ما يقال من أن جنّيا قد أتى إلى هذا الكاهن أو أن هاتفا قد تكلم من داخل ذلك الصنم مبشرا بمحمد تلميحا أو تصريحاً[3].

(١) وردت هذه القصة فى « مغازى » ابن شهاب الزهرى أيضاً ولكنْ مختصرةً فى مواضع ، وأكثر تفصيلاً فى مواضع أخرى (انظر « المغازى النبوية » لابن شهاب الزهرى » / ٣٧ _ ٣٩).

(٢) انظر هذه المراثى وقصتها فى ابن هشام / ١ / ١٥٨ _ ١٦٠ .

(٣) المرجع السابق / ١ / ١٩٤ _ ١٩٥ .

ومن الصعب أيضاً أن نتصوّر أنه كان بمستطاع خديجة ، رضى الله عنها ، معرفة الطريقة التى يمكن أن تتثبت بها فى بداية الدعوة الأولى من حقيقة جبريل وهل هو ملاك أو شيطان ، إذ يقول ابن إسحاق إنها طلبت من الرسول عليه السلام ، حينما يأتيه الوحى ، أن يجلس على فخذها الأيمن ثم على فخذها الأيسر ، فلما رآه قد ظهر له وهو على يمينها ثم رآه قد اختفى وهو على شمالها طمأنته بأنه ملاكٌ لا شيطان ، إذ أنّى لها فى ذلك الوقت المبكر جدا من فجر الإسلام بمعرفة مثل هذا المعيار ؟ بل من أين لها أن تعرف الفرق بين الملاك والشيطان إذا كان الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام ، كما يُفْهَم من الرواية ، لم يكن له دراية بذلك ، إذ لم يكن الوحى قد نزل بَعْدُ بأى حديث عن الملائكة والشياطين ؟ (١)

ونختم هذه الملاحظة بما ذكره ابن إسحاق روايةً عن بعض من حضر بيعة العقبة الثانية من أنهم ، لما تمّت البيعة ، سمعوا الشيطان يصرخ بصوتٍ لم يُسْمَع مثله من قبل فى علوّه ونفاذه محذِّرا أهل مكة من الرسول محمد (الذى سمّاه « مذمَّما » ، أستغفر الله) ومن جماعة يثرب (الذين سماهم « الصُّبَاة » ، أى الخارجين من دينهم إلى دين آخر. يقصد الضّالّين) ، فتهره رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوعّده (٢). ويحق للإنسان أن يتعجب من هذه القصة ، إذ إن شياطين الإنس ،

(١) ١ / ٢٢٣ . وقد سبق أن تناولت هذه المسألة بتفصيل أكثر قليلاً فى كتابى « مصدر القرآن » (ص ٢٣ / هامش ١٩) .

(٢) سيرة ابن هشام / ٢ / ٦٧ .

والحمد لله ، من الكثرة بحيث لا يحتاج الأمر إلى أن يتكلف أبو الشياطين ، على جلالة قدره ، أمر التجسس والصّراخ بنفسه ، وبخاصة أن صراخه كان كالرصاص « الفشنْك » الذى لا يصيب ولا ينْكِى ، فإن قريشا لم تسمعه ولم تكن له من ثم أية جدوى ، وضاع جهد أبى الشياطين على هذا النحو عبثاً !

ومع ذلك لم يتّعظ الشيخ إبليس بفشله واندحاره فى العقبة وأبى إلاّ أن يأخذ على عاتقه مهمة الاشتراك مع القرشيين فى البحث عن أنجع وسيلة للتخلص من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر من مكة ويفلت من أيديهم إلى الأبد ، فذهب بنفسه كَرّةً أخرى إلى حيث كانوا مجتمعين فى دار الندوة لتدبُّر طريقة تريحهم من الصداع الذى سبَّبه لهم عليه السلام بالدين الجديد الذى جاءهم به ، واتخذ هيئة شيخ جليل من أهل نجد (ولا أدرى كيف لم يستغربوا عِلْمَه ، وهو فى نجد على بعد مئات الأميال منهم فى مكة ، بما كانوا يدبرونه لرسول الله أو مجيئَه بهذه السرعة الفلكية ، أو كيف اطمأنوا إليه وهم لا يعرفونه بل لم يسبق لهم أن رأوه مجرد رؤية) ، وأخذ يستمع إلى جدالهم حتى فاجأهم أبو جهل باقتراحه أن يجمعوا من كل قبيلة شابا جلْداً ذا نسب وحسب ثم يعطوا لكل منهم سيفا صارما فيميلوا على محمد ميّلة رجل واحد فيقتلوه فيتفرق دمه فى القبائل جميعا فلا تستطيع قبيلته محاربة هذه القبائل كلها ، وعندئذ أمّن الشيخ إبليس على هذا الرأى ومدحه (١) . أى أن إبليس قد كلّف نفسه كل هذه المشقة لا لشىء إلا

---

(١) المرجع السابق / ٢ / ٨٩ _ ٩١ .

ليقول لهم : « القول ما قال الرجل (يقصد أبا جهل) . هذا الرأى الذى لا أرى غيره » ! أترى إبليس قد فرغت حياته من كل عمل فلم يجد إلا دور « المطيّباتى » ؟

وفى سيرة ابن إسحاق ، إلى جانب ذلك ، عدد من المعجزات التى لا تقبلها بعض العقول والتى قد يكون لأصحابها الحق فى إنكار بعضها . لنأخذ مثلاً ما رُوِىَ عن آمنة من أنها حين حملت به صلى الله عليه وسلم خرج منها نور أضاء قصور بُصْرَى من أرض الشام [١]، إذ ليست المسألة هنا مسألة قوة النور أو ضعفه بل مسألة المسافات الشاسعة التى لا يُفْلِح معها أى نور بالغةً ما بلغت قوته ، فضلا عن أن آمنة لم تكن نبية حتى تقع لها هذه المعجزة . ثم قد يتساءل بعض عن الحكمة فى حدوث هذه الآية ما دام لم يطلبها أحد ولا أدّت إلى أية نتيجة ولا فهمت آمنة آنذاك مغزاها إلا ما ذُكِر أنها قالته من أنه سيكون لابنها شأن ، مع أن أخبارها بعد ذلك معه عليه السلام تدل على أن ذكرى هذه الحادثة لم يكن لها فى نفسها أى وجود .

وهناك معجزة أخرى للرسول عليه السلام وقعت فى مكة فى بدايات الدعوة ، إذ قابل رجلا يُدْعَى ركانة كان مشهورا بقوة عضلاته وبراعته فى المصارعة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يقتنع ، فعرض عليه أن يصارعه وغلبه مرتين ، إلا أنه استمر فى رفض الإسلام ، فعندئذ أخبره أنه

---

(١) السابق / ١ / ١٥٣ .

يستطيع أن يدعو بشجرة هناك فتأتيه ثم يأمرها فتعود إلى مكانها ، وأتبع القول بالفعل ، فما كان من ركانة إلا أن هرول إلى قومه وهو يصرخ دهشاً من السحر العجيب الذى يتمتع به محمد [(١)]. وسواء أصحت هذه المعجزة أم لا فإن ذلك لا يقدح فى أمانة ابن إسحاق ، إذ هكذا سمع القصة ، وكان الجوّ العقلى والنفسى آنئذ لا يرى فى أمثالها شيئا ، وإن كنا ننظر الآن إلى الأمر من زاوية أخرى ونتساءل : ألم يقل القرآن : ﴿ وما منعَنا أن نُرْسِل بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولون ﴾ ؟ ثم ها هو ذا ركانة لم تؤثر فيه تلك الآية ولم ير فيها إلا سحرا ، فماذا كانت جدواها إذن ؟ بل ماذا كانت الجدوى من أن تكسر السماء المبدأ الذى أرسته مع مجىء الدين الجديد ، وهو عدم إرسال المعجزات ، التى ثبت أنها لا تؤدى إلى طائل ؟ على أن ابن إسحاق ، بالقياس لطائفة من كتاب السيرة المتأخرين ، يُعَدّ مُقلا فى هذا الباب ، فمثل هذه المعجزات فى « سيرته » لا تقع إلا بين الحين والحين البعيد . ثم إن الرسول عليه السلام لا يأتى بها عادةً إلا للمسلمين ، وهو ما يمكن التوفيق بينه وبين الآية المذكورة بأنه لم يُقْصَد بمعجزاته صلوات الله عليه إقناع الكافرين ، الذين ثبت أنها لا تُجْدى معهم ، بل تثبيتُ المؤمنين أو إدخال السرور على نفوسهم .

ومن الملاحظات التى تلفت النظر فى سيرة ابن إسحاق أيضاً ما سبق أن أشار إليه د. مراد من أن الجزء المخصص من صفحاتها للمرحلة

---

(١) السابق / ٢ / ٢٨ .

المكية أقل كثيرا جدا من نظيره الخاص بالمرحلة المدنية . بيد أن هذا لا يطعن فى مصداقية ابن إسحاق ، فالرجل أدّى ما بلغه . وأحسب أنه من الطبيعى ألا تُحْفَظ أخبار النبى فى بدايات الدعوة ، أيام أن كان مضطَهَدا مطارَدا تخطَّط له المؤامرات هو وأتباعه وليس له شىء من القوة والسلطان، بنفس الاهتمام الذى حُفِظت به وقائع حياته وصراعاته مع قوى الشرك والنفاق فى المدينة بعد أن استعلنت الدعوة وصار يبشَّر بها بملء الفم دون ضغط أو إرهاب وأضحى لها دولة ذات أنياب وأظافر وانطلقت مسيرتها بكل قوة وثقة .

وقد كنت أقرأ ، وأنا أُعدّ هذه الدراسة : السيرة النبوية التى وضعتها المستشرقة البريطانية كارين أرمستروغ فلفت نظرى توافقها بوجه عام معى فى هذا التعليل ، إذ قالت إن « المادة عن حياة محمد فى مكة إبان سنوات نبوته الأولى قليلة ، ففى ذلك الوقت وحينما كان شخصيةً مغمورة نسبيا لم ير أحدٌ أهمية تسجيل وقائع دعوته هناك . أما خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته بعد هجرته للمدينة فقد أصبح المسلمون على وعى أن التاريخ يتم صنعه أمام أعينهم المشدوهة . ولهذا تم تسجيل الأحداث بتفصيل أكثر »[(١)]. ويمكن أن نضيف إلى البعد الزمانى هنا البعد المكانى ، إذ من الطبيعى تماما أن تعى ذاكرة سكان المدينة من مهاجرين وأنصار ما وقع فى مدينتهم ، بخلاف الوقائع التى

---

(١) كارين أرمستروغ / سيرة النبى محمد / ٧٥ .

جرت فى مكة البعيدة التى أصبحت تنتمى إلى الماضى حتى إن المهاجرين أنفسهم لم يعودوا ينتسبون إليها وكأنها ليست بلدتهم الأصلية. ثم إن أحداث مكة لم تكن تقع عادةً إلا أمام أفراد قلائل ، إذ كانت غالبا أحداثا فردية طرفاها الرسول مثلا أو واحد أو ثلة محدودة من أتباعه مع أمثالهم من المشركين ، أما فى المدينة فقد كانت الأحداث تمسّ الدولة كلها فى صراعاتها السياسية والحربية مع اليهود والمنافقين والقبائل الوثنية ودولة الروم وفارس .

ومع ذلك فقد يقال إن ابن إسحاق قد أفاض رغم هذا فى بعض حوادث مكة ، وبخاصة تلك المتعلقة بحفر زمزم وحماية أبى طالب للرسول عليه السلام . ولعلّ الجواب يكمن ، فيما يخص بئر زمزم ، فى أن ما قيل عنها هو خيال قصصى ممتع تهفو النفوس إلى ترديده وسماعه، أما فيما يخصّ أبا طالب وحيلولته بين قريش وإيذاء ابن أخيه صلوات الله عليه ، فإن كل كتب السيرة ، حتى السابق منها على ابن إسحاق، تُجْمِع على وقوع هذه الحماية . كل ما فى الأمر أن بعضهم لا يرويها بالتفصيل الذى يرويها به ابن إسحاق . وليس من السهل عندى اتهامه بالكذب أو التزيد فى هذا الأمر ، بل الصواب فى رأيى أنه قد وصله من الأخبار فى هذه المسألة ما مالت نفسه إلى قبوله وإثباته كما هو ، على حين أن بعضا آخر ممن كتبوا السيرة ، وبخاصة من السابقين عليه ، قد آثروا الإيجاز . وعلى أية حالٍ فهذه الأخبار التى تبدو لنا كثيرة إنما هى فى الغالب شيء واحد تقريبا كُرِّر بأساليب متنوعة .

ومما يلفت النظر أيضاً فى سيرة ابن إسحاق مما يمكن أن يؤخذ عليه أنه قد يورد فى الحادثة الواحدة أكثر من رواية ثم يكتفى بوضع الروايتين أو الروايات المختلفة جنبا إلى جنب دون أن يحاول الترجيح بينها أو اختيار إحداها ونفى الأخريات . ومن ذلك الروايتان اللتان حكاهما فى تعليل إرجاع حليمة السعدية محمداً الصغير إلى أهله بمكة قبل أن تكتمل فترة رضاعه عندها . وتقول الرواية الأولى إن ابنها الصغير ، بعد مَقْدَم محمد بشهر ، رأى رجلين عليهما ثياب بيض أَضْجَعا أخاه من الرضاع وشقا بطنه ، أما على الرواية الثانية فإن نفرا من نصارى الحبشة رأَوْه مع مرضعته فعرضوا عليها أن يأخذوه إلى مَلِكهم لأن له شأنا ، فخافت عليه وأسرعت بإعادته إلى أمه [١] . لكن من السهل الدفاع عن ابن إسحاق ، فقد رأى أن الأمانة تقتضيه أن يسوق الروايتين كلتيهما ويترك للقارئ مهمة الترجيح بينهما ، إذ ربما بدتا له متساويتين بحيث لا يستطيع هو أن يؤدى هذه المهمة .

ومثل ذلك يقال عن الروايتين اللتين ساقهما فى إسلام عمر بن الخطاب : فهناك رواية تقول إنه كان قاصداً يوماً دار الأرقم فى ظاهر مكة يبغى إيذاء الرسول عليه السلام فقابله أحد أفراد قبيلته ممن كان قد أسلم سرّا فحذّره من مغبة ما ينتويه وطلب منه أن يتعهد أمور أهل بيته بدلا من ذلك وأفهمه أن أخته وزوجها قد أسلما ، فما كان منه إلا أن

---

(١) سيرة ابن هشام / ١ / ١٥٢ _ ١٥٤ .

قصد إلى بيتهما ليسمع هَيْنَمَةً وهو يقترب منه ، فلما شعرا به سكتت الهينمة . وبعد شيء من الجدال حول حقيقة إسلامهما قام فبطش بهما ثم لما رأى الدم يسيل من رأس أخته داخلته الرقة وطلب أن يطلعاه على الصحيفة ، التي ما إن اغتسل وأنشأ يقرأ فيها حتى لان قلبه للإسلام وأعلن أنه سيذهب إلى الرسول ليعلن أمامه تحوله إلى الدين الجديد . أما الأخرى فتجعل إسلامه رضى الله عنه فى الكعبة ، إذ قصد إليها ليؤدى الطواف فرأى رسول الله يصلى أمامها فاختبأ له خلف كسوتها لعلّه يروّعه ، لكنه ما إن سمع الرسول يتلو القرآن حتى انعطف قلبه إلى الإسلام وبكى . ثم لما انصرف الرسول عليه السلام تتبعه حتى لحقه ، وبعد حوار قصير صارحه بأنّه يريد الدخول فى دينه [(١)] .

ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن هذه الروايات ، كما قلنا مرارا ، كانت تُتَناقَل شفاهًا . وإذا كنا اليوم ، رغم اعتمادنا على التسجيل فى معظم أمور حياتنا ، كثيرا ما نجد خلافا فى مثل هذه الأشياء بين مذكرات شهود العيان إلتى قد تكون سُجِّلَتْ أوّلاً بأول ، فما بالنا بالروايات الشفوية التى اعتمد عليها ابن إسحاق فى تأليف « سيرته » ؟ أريد أن أقول إن مثل هذه الاختلافات ، وهى عنده بحمد الله قليلة ، ينبغى ألا تُتَّخَذ حجة على أن عمله لا يوثق به . وأخيراً وليس آخراً فإن

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .

ابن إسحاق لا ينفرد بهذا بل يَشْرَكُه فيه تقريبا جميع المؤرخين القدماء وكتاب السِّير وعلماء الحديث .

ومما يمكن الأخذ فيه والردّ من كلام ابن إسحاق (وغيره من كتاب السيرة) المسائل الإحصائية : فمثلا كم كان عدد المهاجرين إلى المدينة على وجه الدقة ؟ وما أسماؤهم واحدا واحدا ؟ وهل قتل المسلمون من بنى قريظة بعد خيانتهم الخيانة العظمى كلَّ الرجال والشباب ؟ أم هل اقتصر القتل على المقاتلة منهم فحسب ؟ وماذا كان عدد القتلى ؟ أهو تسعمائة ؟ أهو ستمائة ؟ كل هذه أسئلة واختلافات طبيعية ، فالقوم آنذاك لم يكون يعرفون ما تعرفه الدولة الحديثة من السجلاّت والوثائق التى يقوم عليها موظفون كل مهمتهم كتابة الأرقام وحفظها ، بل كانوا يعتمدون على النقل الشفوى التقريبى . ونحن نعرف أنه حتى مع استعمال السجلات فى حياتنا المعاصرة فإن الأمر لا يسلم من وجود اختلافات فى التقدير والإحصاء فى بعض الأحيان لهذا السبب أو ذاك : كأن يكون الشخص المسؤول عن التقييد غير دقيق أو له أرب فى التلاعب بالأرقام ، وقد تأتيه أوامر عليا بالتدليس ، أو ربما لا تتوافر له الأعداد الحقيقية بسبب بعض الظروف ، فما بالنا إذن بالإحصاءات المذكورة فى السيرة النبوية وأمثالها ؟

ولنأخذ عدد القتلى من بنى قريظة مثالاً على ذلك : فكل ما يذكره ابن شهاب الزهرى فى « مغازيه » أن سعد بن معاذ قد حكم « بأن تُقْتَل

مقاتلتهم وتقسّم أموالهم وتُسْبَى ذراريهم » ولا شيء غير ذلك [١]. كم كان يا تُرى عدد هؤلاء المقاتلين ؟ لا تجيبنا « المغازى » . فإذا تحولنا إلى ابن هشام وجدناه يذكر أن سعدا قد حكم بقتل « الرجال » لا المقاتلة وحدهم وأن المقتولين كانوا ستمائة أو سبعمائة ، وإن كان هناك من يزيد فيجعلهم ما بين الثمانمائة والتسعمائة [٢]. أما تاريخ الطبرى فيذكر هذا وذاك [٣]. وفى « جوامع السيرة النبوية » لابن حزم لا نجد إلا حُكْم سعد بأن « تُقْتَل الرجال » وأنهم « كانوا من الستمائة إلى السبعمائة » قولا واحدا [٤]، على حين يفصِّل المقريزى مع بعض الاختلاف فيقول إن سعداً قد حكم بأن « يُقْتَل من جرَتْ عليه المواسى (أى من بلغ ونبتت عانته فاحتاج إلى حَلْقها بالمُوسَى) » ، وإن القتلى كانوا ستمائة ، وإن جاء فى نسخة مخطوطة أخرى من « إمتاع الأسماع » العبارة التالية : « وقيل : ما بين الستمائة إلى السبعمائة ، وقيل : كانوا سبعمائة وخمسين » [٥].

---

(١) ابن شهاب الزهرى / المغازى النبوية / ٨٢ .

(٢) سيرة ابن هشام / ٣ / ١٤٦ .

(٣) والملاحظ أنه لم يرد فى الرواية الأولى ذكر لابن شهاب الزهرى ، على عكس الثانية، التى عزاها إلى ابن إسحاق ونقل كلامه بنصه (انظر تاريخ الطبرى / ٢ / ٥٨٧ ـ ٥٨٨) .

(٤) ابن حزم / جوامع السيرة النبوية / ٢ / ٢٣٥ .

(٥) المقريزى / إمتاع الأسماع / تحقيق محمد عبد الحميد النميسى / دار الأنصار / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م / ١ / ١٩٤ ـ ١٩٦ .

ولو أسرعنا الخُطَا لنبلغ العصر الحديث فسنجد من يكرّرون ذكر الأرقام التى جاءت فى كتب السيرة القديمة ، وهؤلاء هم الأغلبية ، ولكن سنجد أيضاً بجانب هؤلاء من يحاول إعادة النظر فى هذه النقطة : فعلى سبيل المثال يشكّك الكاتب الهندى المسلم سيد أمير على فى تلك الأرقام القديمة قائلاً : « إننا حين ننتقل إلى الحديث عن هؤلاء الذين أُعْدِموا فإن الإنسان يرى من فوره كيف بُولِغَ فى عددهم : فبعض يقول : أربعمائة ، وآخرون يرتفعون به إلى تسعمائة . أما عند المؤرخين النصارى (يقصد المستشرقين) فيتراوح بين سبعمائة وثمانمائة . وفى رأيى أن هذه مبالغة غير معقولة ، فحتى أربعمائة تبدو عددا مبالغا فيه ، فإن الروايات تتفق على أن عَدَد القتال فى بنى قريظة كانت تتكون من ثلاثمائة درع وخمسمائة ترس وألف وخمسمائة سيف . ويبدو أن الروايات قد بالغت فى هذه الأعداد لكى تكبّر شأن الغنائم . ولكن حتى لو قبلنا هذه الأرقام على علاتها ، مع التنبيه إلى أن مثل هذه الأسلحة تتجاوز دائما أعداد المحاربين إلى حد كبير ، فإنى أجدنى مسوقا إلى الاستنتاج التالى ، وهو أن عدد المحاربين لا يمكن أن يكون أكثر من مائتين أو ثلاثمائة ، وربما نشأ الخطأ من الخلط بين الأسرى جميعا وبين الذين أُعْدِموا »[1]. وقد شايعه على هذا الرأى مواطنه الهندى

---

(1) Syed Ameer Ali Moulvi, A Critical Examination of the Life and Teachings of Mohammed, William and Norgate, London, 1873, p. 113 .

شراغ على ، الذى يستكثر حتى أن يكون عدد القتلى قد بلغ المائتين ، وحجته أن الأسرى كلهم قد قضوا ليلتهم فى بيت من بيوت المدينة ، ومثل هذا البيت لا يمكن أن يسع ذلك العدد الكبير (١).

لكن هناك هنديا مسلما ثالثا (هو د. بركات أحمد) لا يرضى بشيء من ذلك بل يؤكد أن عدد القتلى لا يمكن أن يتجاوز ستة عشر أو سبعة عشر ، وهو عدد القيادة المسؤولة عن قبيلة قريظة ، التى يرى أنها كانت تتكون من ستمائة شخص إلي تسعمائة ، لا سيما حين يكون بعض أفراد هذه القيادة قد قتل في الميدان ، وبعضهم قد وقع فى الأسر . وللكاتب تحليل مستفيض لذلك الموضوع وحجج متنوعة يسند بها رأيه ، ويستطيع القارئ أن يرجع إليها بنفسه إذا أراد (٢).

ومن بين من تناولوا السيرة النبوية فى العصر الحديث أيضاً المرحوم محمد حسين هيكل ، وقد التزم خطة ابن شهاب الزهرى فاكتفى بأن أورد فى كتابه عن « حياة محمد » حكم سعد بقتل « المقاتلة » من

---

(1) Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular Jihâd, Calcutta, 1885, pp. 90 - 91 .

ويجد القارئ هذا الكلام فى ص ٩٢ ـ ٩٣ من ترجمتي لهذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان « الجهاد فى الإسلام ـ عرض نقدى » (مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م) .

(٢) انظر د. بركات أحمد / محمد واليهود ـ نظرة جديدة / ترجمة محمود على مراد / مكتبة الأسرة / ١٩٩٨م / ١٥٧ وما قبلها وما بعدها .

بنى قريظة ولم يعرض من قريب أو بعيد لعدد هؤلاء القتلى [١]. وهناك أيضاً المرحوم محمد عزّة دروزة ، الذى سكت ، كما سكت ابن شهاب الزهرى [٢]، فلم يورد أية أرقام للقتلى من بنى قريظة ، ولكنه ذكر أن سعدا قد حكم بقتل « الرجال » لا المقاتلة وحدهم كما جاء فى « مغازى » الزهرى [٣].

فهذا مثال على الاختلاف الذى يمكن أن يدور حول ما أورده ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة من أرقام وإحصاءات . ولكن رغم ذلك فإن أحدا لا يمارى فى أن حكما بالقتل قد صدر ضد بنى قريظة جزاء خيانتهم العظمى فى غزوة الأحزاب . أما رأيى الشخصى فهو أن رقم السبعة عشر رقم جدّ ضئيل ، لأن هذا الرقم سوف يثير للتوّ سؤالا هاما وهو : وأين ذهبت بنو قريظة ، التى بقيت كلها تقريبا حسب هذا التحليل فلم يُقتَل منها إلا نحو العشرين ؟ ذلك أننا لم نسمع بهم بعد ذلك عند المؤرخين وكتّاب السيرة ، اللهم إلا بآحاد منهم . أغلب الظن أن من حاول من الهنود المسلمين فى العصر الحديث تقليل أرقام القتلى

---

(١) انظر د. محمد حسين هيكل / حياة محمد / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٥- ١٩٦٦م / ٣٩٩ .

(٢) وكما سكت البخارى ومسلم فلم يرويا أى حديث عن تنفيذ حكم سعد فعلا (انظر هذه الملاحظة فى « محمد واليهود - نظرة جديدة » للدكتور بركات أحمد/ ترجمة محمود على مراد / ١٥٣ - ١٥٤) .

(٣) انظر محمد عزة دروزة / سيرة الرسول - صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية / ٢ / ٢٠١ .

القُرَظيِّين إنما أرادوا الردّ على المستشرقين والمبشرين الذين اتخذوا من مصير أولئك اليهود المجرمين فرصة للدعاية ضد محمد عليه السلام واتهامه بالقسوة . لكن ، كما قال شراغ على نفسه ، « ليست مسألة صغر العدد أو كبره بذات أهمية ما دام الإعدام متمشيا مع القانون الدولى لإقليم ما » [١] . يريد أن يقول إن هذا الحكم هو الجزاء الوفاق لجريمة الخيانة العظمى . والواقع أنه حتى لو كان عدد قتلى قريظة قد بلغ فعلا التسعمائة فإن الحكم بقتلهم لهو أخفّ كثيرا من الحكم الذى يُنزله العهد القديم (كتابهم المقدس) بأعداء اليهود فى مثل تلك الأحوال ، إذ يقضى بإبادة الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخًا . جاء فى سفر « التثنية » (الأصحاح العشرون / ١٦) : « وأما هؤلاء الشعوب التى يعطيك الربّ إلهك نصيبا فلا تستبْقِ منها نَسَمَةً ما » . أى أن المسلمين كانوا رحماء باليهود حتى بمقياس هؤلاء الأرجاس المناكيد ، وبخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن جريمتهم كانت الخيانة العظمى وليست الهزيمة فى حرب شريفة ! [٢]

---

(١) شراغ علـى / الجهاد فى الإسلام - عرض نقدى / ترجمة د. إبراهيم عوض / ٩٢ .

(٢) انظر مناقشة تفصيلية لهذه القضية فى كتابى « مصدر القرآن » / ٤٣ _ ٥٣ .

المصادر والمراجع

* د. إبراهيم عوض / ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية / المطبعة النموذجية / ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

* د. إبراهيم عوض / محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

* د. إبراهيم عوض / مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

* د. إبراهيم عوضين / سيرة ابن هشام وإنصاف الحقيقة / مقال بمجلة « الهلال » / مايو ١٩٩٨م .

* ابن إسحاق / السير والمغازى / تحقيق د. سهيل زكار / دار الفكر / ١٣٩٨هـ - ١٩٧٩م .

* البخارى / صحيح البخارى / عيسى البابى الحلبى .

* د. بركات أحمد / محمد واليهود - نظرة جديدة / ترجمة محمود على مراد / مكتبة الأسرة / ١٩٩٨م .

* ابن حزم / جوامع السيرة النبوية / إعداد أحمد حسن جابر رجب / ملحق مجلة الأزهر / جمادى الأولى ١٤١٣هـ .

* د. ص. مرجليوث / أصول الشعر العربى / ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض / نشر دار النهضة العربية وتوزيع مكتبة زهراء الشرق / القاهرة / ١٩٩٦م .

* ابن سيد الناس / عيون الأثر / تحقيق محمد العيد الخطراوى ومحيى الدين متو / مكتبة التراث بالمدينة المنورة ودار ابن كثير بدمشق وبيروت / ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

* شراغ على / الجهاد فى الإسلام - عرض نقدى / ترجمة د. إبراهيم عوض / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

* ابن شهاب الزهري / المغازى النبوية / تحقيق سهيل زكار / دار الفكر / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* الطبرى / تاريخ الطبرى / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / ط٤/ دار المعارف .

* عروة بن الزبير / مكتب التربية العربى لدول الخليج / الرياض / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* د. فاروق حمادة / مصادر السنة النبوية وتقويمها / دار الثقافة/ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

* كارين أرمستروغ / سيرة النبى محمد / ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى / ط ٢ / سطور / ١٩٩٨م .

* ابن كثير / البداية والنهاية / دار الغد العربى / ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .

* د. محمد حسين هيكل / حياة محمد / مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٥م ـ ١٩٦٦م .

* محمد سرور بن نايف زين العابدين / دراسات فى السيرة النبوية/ ط٥ / دار الأرقم / برمنجهام / ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

* محمد عزة دروزة / سيرة الرسول ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية / عيسى البابى الحلبى / ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م .

* مسلم / صحيح مسلم / عيسى البابى الحلبى .

* المقريزى / إمتاع الأسماع / تحقيق محمد عبد الحميد النميسى/ دار الأنصار / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

* ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد/ مكتبة الكليات الأزهرية .

* Alfred Guillaume, The Life of Muhammad, Oxford University Press, 1980 .

* Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular Jihâd, Calcutta, 1885 .

* D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, 3rd edition, G. P. Putnam's Sons, New York & London, 1905 .

* Emile Dermenghem, La Vie de Mahomet, Librairie Plon, 1929 .

* Mahmoud Aly Mourad, La Biographie du Prophète d' Ibn Ishâq / Ibn Hishâm - Période Mekkoise : Analyse Critique du Texte, 1996 - 1997 .

* Syed Ameer Ali Moulvi, A Critical Examination of the Life and Teachings of Mohammed, William and Norgate, London, 1873 .

* Virgil Gheorghiu, la Vie de Mahomet, Librairie Plon, 1970 .

* William Muir , The Life of Mohammad from the Original Sources, John Grant, Edinburgh, 1912.